# محو المقدس

(رب ابرهيم)

هذا القرءان عجيب فعلا, فكلما درسته و تعمقت في دراسته و جادلته فانه يظهر لك أمورا تزلزل وجودك و اذا نشرتها زلزلت الناس. و كلما درست القرءان بعيدا عن أفكار الأحزاب و مناهجهم, و نظرنا في القرءان وحده فاننا نزداد يقينا بأن الأحزاب لا علاقة حقيقية بينهم و بين الكتاب, بل يزداد ظهور الكيد الذي كادوه للكتاب و أهل الكتاب و اليتامى الذين كان عليهم أن يحفظوا لهم كتاب ربهم الذي هو ميراثهم و كنزهم الأعظم.

و حيث ان اسم الملة مقرون بابرهيم فان دراسة مثال ابرهيم هو من أكبر و أحسن الأعمال التي يمكن أن يقوم بها كل من يريد أن يطلع بعمق على جوهر هذه الملة. و بما أن الرب هو أعلى فكرة في تصور الملة و كل شيء يتفرع عن هذا التصور, و يمكن أن نقرر أيضا أن رب الشخص هو اسقاطه النفسي أو أن هذا الرب يحوي الافكار و التاريخ النفسي لهذا الشخص بالذات. و لذلك سنسعى في هذا المقال أن نرى رب ابرهيم من دراسة كتاب ابرهيم. فتعالوا ننظر...

(أصل الثورة)

لماذا رفض ابرهيم الهة ابيه و قومه؟ أي لماذا سعى أصلا لأن يبحث عن اله اخر؟ لا نستطيع أن نقول ان هذا الاله هو الذي دفع ابرهيم للبحث لأن هذا الاله لم يكن له وجود بعد بالنسبة لابرهيم. و لا يمكن أن يؤثر فيك شيء أو فكرة هي معدومة بالنسبة لك, خاصة في مجال العالم النفسي. ان رفض ابرهيم لالهة قومه هو الذي دفعه الى البحث عن الاله الأعظم. فنتسائل: و ما الذي دفعه الى رفض الهة أبيه و قومه؟ بمعنى اخر: ما الذي خلق الاستعداد في قلب ابرهيم ليرفض و يتمكن من رفض الهة قومه؟

نلاحظ من القصة أن ابرهيم رفض اله ابيه في الأصل, اذ أبيه هو بوابة قومه, فالاباء هم الذين يزرعون عقائد المجتمع في الابناء. و لا يوجد انسان يعادي مجتمعه الا لأنه يعادي أهله بدرجة أو بأخرى. و لذلك نرى حدة ابرهيم مع أبيه و استصغاره من شأنه مثل قوله له "اني جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعي أهدك صرطا سويا" أو قوله "سأستغفر لك ربي" جرّب أن تقول لأبيك هاتين الكلمتين حتى تشعر ما معنى أن ابرهيم كان يحتقر أبيه في درجة من درجات وعيه. نعم و في نفس الان فان ابرهيم كان يحترم أبيه و يحبه اذ كان يدعوا له بظهر الغيب, و نحن نستطيع أن نفهم السبب الذي يدفع الشخص لأن يدعوا لاخر في وجهه, يمكن أن يكون رياءا أو مصلحة أو

استحقارا, و لكن أن تدعوا له بظهر الغيب فهذا يدل على وجود درجة معينة من المحبة و التقدير له في نفسك. و التحليل النفسي يكشف لنا عن سر هذه العلاقة الازدواجية بين الابن و أبيه. فهو يبغضه و يحبه في ان واحد, يبغضه لسبب و يحبه لسبب اخر.

فكره ابرهيم لابيه هو الذي دفعه الى رفض الهته. و نستطيع أن نتخيل مقدار هذا الكره الذي يدفع الابن الى أن يسعى لتدمير أعز ما عند أبيه, فمعلوم أن دين الانسان و الهه أو الهته و أنبياءه و معلميه(اباءه) هم أعز ما يملكه في وجوده, و هو على استعداد أن يقتل أعز الناس مقابل حفظ كرامتهم, و على استعداد أن يتخلى عن أعز الناس مقابل رضاهم (مثل نوح و ابنه) . و أما سر قوة الدين في حياة الشخص فهذا له مباحث خاصة شديدة الأهمية, و بصورة عامة يمكن أن نستشف أسباب هذا الحب للدين عن طريق فهم ظواهر الدين المختلفة. فكون الدين أهم ما في الحياة (حتى لو كان هذا الدين هو الالحاد- الدين بمعنى مثل أعلى و تصور للكمال في قلب النفس و هذا ما لا يمكن ان يخلو منه احد من الاحياء البتة) و كون الاله أو الالهه و الاباء هم أكبر ما في الدين, و كون ابرهيم سعى لتحويل الهة أبيه الى "جذذا" اي أن يكسرهم و يحطمهم و يدمرهم تدميرا فهذا يدلنا على مقدار عظيم جدا من البغض كان يفيض من قلب ابرهيم على أبيه خاصة و قومه عامة.

و من انعكاسات هذا الكره أيضا كونه "اعتزلهم" و لم يجد بأسا في ذلك, و لنأخذ بعين الاعتبار أن ابرهيم ربط علة اعتزله بالهتهم "و اعتزلكم و ما تدعون من دون الله" . و معروف أن أي دين (الهة و اباء) يوجد قيم و أفكار عن الحياة و الاخلاق التي يجب أن يأخذ بها الاتباع. و بذلك نستنبط أن من بواعث كره ابرهيم لابيه هو ايمان أبيه بهذه القيم و الاخلاق كلها أو بعضها.

و لكن ما الذي جعل ابرهيم يكره اباه كل هذا الكره؟ ما الذي جعله يكره قيمه و افكاره و اخلاقه؟ لا شك أن لهذه القيم علاقة سيئة معه, اي أن ابيه أثر عليه بطريقة سلبية. و من القصة نرى أن أبيه كان رجلا محترما و لطيفا الى حد كبير لعله حد لا يبلغه أكثر الاباء الاتقياء. تأمل كيف استجاب لاهانات ابرهيم المتواصلة له و لقومه و لالهته و اباءه. لو كان أحد أباء "المسلمين" من يومنا هذا أو السابق لقطع رأسه. تصور أن ابنك يسب الله و الاسلام و النبي و الصحابة و أهل البيت و شيوخ الاسلام و يسفه عقولهم و يحتقرك أنت و هم دفعة واحدة. اذا تصورت ذلك ثم نظرت في ردة فعل أبو ابرهيم فانك سترى مقدار الحلم و اللطف الذي كان عليه عندما اكتفى بالسكوت في الكثير من الاحيان, و التخويف البسيط في الاحيان الاخرى, و بالاعراض في أحيان أخرى. فمن هنا نستنبط أن كره ابرهيم لابيه لم يكن في أغلب الظن بسبب سوء معاملة الأب لابنه, و لعل دعاء ابرهيم المستمر لابيه هو قرينة قوية على أن

الاب كان لطيفا في معاملته, و ان مجرد كون ابرهيم يملك القابلية النفسية للثورة الدينية (و هي أكبر الثورات على الاطلاق) فان هذا بحد ذاته يدل على مجال الحرية الواسع الذي كان الأب يمنحه في البيت, و على حلمه و أدبه و صبره على السوء, فان الاباء الطغاة في بيوتهم غالبا ما يخلقوا أبناء أشبه بالمخانيث منهم بالرجال, أي جبناء و أغبياء و خانعين للسلطة. فكون ابرهيم ثائرا يدل على أن أبيه كان حليما لطيفا يمنح الحرية الى حد بعيد. نعم قد يكون الاب سيء المعاملة فتصبح ردة فعل الابن تمردا على السلطة, و هذا أيضا صحيح في حالة ابرهيم, و لكن سوء معاملة أبيه له يظهر أنها لم تكن مقصودة أو موجهة مباشرة له. و هذا ما شكل الازدواجية في علاقته بأبيه.

فاذا أردنا أن نعرف ما هو هذا الذي سبب هذا الكره للأب؟ لن نجد أمامنا الا جواب واحد و هو نفس الجواب الذي قرره التحليل النفسي في ما سموه "عقدة اوديب" . حجب الأب للأم هو سبب كره الابن للأب. و من القرائن التي تزيد دعم هذه الفكرة هو أن أم ابرهيم ليس لها ذكر في كل القصة. فحجب الأم في قصة ابرهيم اشارة على حجبها من حياة ابرهيم. و لذلك سعى ابرهيم الى قتل ابيه (فكريا و عن طريق اعتزاله) ثم و لكونه غير واع بالسبب الجذري الذي دفعه الى هذا القتل فانه سعى و كردة فعل الى خلق أب جديد له في عالم الغيب الخفي. فكونه سعى الى اله خفي ( فسعيه لم يكن بريئا من التحيز النفسي و الافكار اللاشعورية المسبقة) هو من اثار رغبته اللاشعورية في "اخفاء" ابيه من الحياة, من حياته, أي قتله. و حجب الام هو عمل غير مقصود من الأب في الغالب, و هو من الأمور التي تفرضها "أوامر الالهه و الاباء" . و هكذا نصل الى أن "عقدة أوديب" هي أصل ثورة ابرهيم و البذرة اللاشعورية التي كونت تصوره عن الهه. (اوديب هو الذي قتل أباه ليتزوج أمه, و هي اسطورة اغريقية شهيرة, و منها سميت العقدة)

(السعي "لاكتشاف" الاله)

سنأخذ كلمات من كلمات ابرهيم تكشف عن طبيعة الهه:

1 هذا فسئلوهم ان كانوا ينطقون

2 افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم و لا يضركم اف لكم و لما تعبدون من دون الله افلا تعقلون

3 لا احب الافلين

4 لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين

5 . فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر

6 لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و لا يغني عنك شيئا

7 سلم عليك ساستغفر لك ربي انه كان بي حفيا

8 هل يسمعونكم اذ تدعون. او ينفعونكم او يضرون

9 الذي خلقني فهو يهدين. و الذي هو يطعمني و يسقين. و اذا مرضت فهو يشفين. و الذي يميتني ثم يحيين. و الذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين

10 ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق

11 . فراغ الى ءالهتم فقال الا تاكلون. ما لكم لا تنطقون.

12 اتعبدون ما تنحتون

13 و لقد جاءت رسلنا ابرهيم

14 و اذ بوانا لابرهيم مكان البيت

15 اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العلمين

16 يبنى ان الله اصطفى لكم الدين

17 الله ياتي بالشمس من المشرق فاتي بها من المغرب

18 ابرهم رب ارني كيف تحي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي

من دراسة هذه الايات نستنبط أن ابرهيم يرى الاله على أنه هو عين الطبيعة, و أنه اختصه بامتيازات احتكارية, و هو اله هلامي لا يعرف عنه شيء, بل لعله غير موجود الا في عقله هو , و انه مخلوق من دوافع أنانية نفعية بحتة. و الان الى البرهان التفصيلي:

أما عن كون رب ابرهيم هو نفس الطبيعة. فنستطيع أن نرى هذا من قوله "الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب" فان الرجل الاخر كان يمكنه أن يغلب هذه الحجة بأن يقول لابرهيم "لا ان الذي يأتي بالشمس من المشرق هو حرفوش و ياسمين الهة ديني و أنا رسولهم على الأرض, فان كنت تدعي أن الله هو الاله الحقيقي للعالم المتحكم به فاجعل الله يأتي بالشمس من المغرب ان كنت من الصادقين" و عندها سيسقط في يد ابرهيم و لن يجد مخرجا.

فالعالم ليس لعبة يتحكم فيها أحد, بل هو يسير على سنن و قوانين الى حد ما. و اذا أردنا اعتبار حجج القرءان محكمة لا يشوبها شيء و لا يمكن أن تغلب فان الافتراض الوحيد هو أن الله هو عين الطبيعة أي أن هاتين الكلمتين تدلان على نفس الجوهر. فالله ليس شيء منفصل عن الطبيعة. الله هو اسم القوانين التي تحكم العالم الافاقي و النفسي. "سنت الله" ان شئت.

و كثيرا ما يحتج ابرهيم على خصومه بأن يقول لالهتم و لهم "فسئلوهم ان كانوا ينطقون" أو "ما لكم لا تنطقون" اننا نستطيع أن نستعمل نفس هذه الحجة على ابرهيم و اتباع ابرهيم فنقول لهم و لله " فسئلوه ان كان ينطق" هيا فليتكلم من السماء حتى نسمعه كلنا و نعلم أنه حي, و نستطيع أن نحاجج المؤمنين بنفس هذه الحجة و لن يجدوا أي جواب. فطالما أن ابرهيم استعمل هذه الحجة لكي يثبت زيف الهة خصومه فمن أبسط حقوقنا هو أن نستعمل نفس هذه الحجة لكي نرى مدى حقانية وجود الهه هو. و حيث ان هذا مستحيل فان الجواب الوحيد هو أن الله ليس كائن مستقل و لكنه عين الطبيعة, و لا يوجد انسان عاقل سيطلب من الطبيعة ان تنطق! "الرحمن لا يملكون منه خطابا".

و أما عن الامتيازات و الاحتكار. فنرى هذا من قوله "انه كان بي حفيا" و "جاءت رسلنا ابرهيم" و " بوأنا لابرهم مكان البيت" و "قال له ربه أسلم" و "يبنى ان الله اصطفى لكم الدين" و "اني جاعلك للناس اماما" و كونه جعل في ذريته النبوة و الكتاب. و هنا نرى تناقضا قويا بين الاله المساوي للطبيعة و المحايد و بين الاله الذي يقول و يختص و يتخذ وكلاء و خلفاء و أئمة و يعطي عقود امتياز لبعض الناس دون بعض. و يعطي أدلة خاصة و يسمح بتجارب مادية لاثبات العقائد "رب أرني كيف تحي الموتى" و هذه الاية غريبة فعلا, فان كان ابرهيم أبو الملة لا يطمئن قلبه بالايمان الا برؤية تجربة مادية خارقة, و ان كان الله يأذن بمثل هذا, فأي حجة تبقى على بقية الناس الذين لم "يكلمهم" الله و لم يريهم الخوارق؟! الفهم الجسماني لهذه الاية يهدم الدين-دين الفرق الاسلامية- كله. على أية حال, نرى هنا أن ابرهيم "خليل" هذا الاله. و لا عجب, فان الانسان اذا أراد أن "يكتشف" الها فغالبا ما يكون هذا الاله كما يريد "المكتشف" و يشتهي!

و أما عن هلامية هذا الاله. فهذا ناشئ من التناقض بين كونه اله صامت مطابق للطبيعة و الحياة و لا يعدو ان يكون محاولة تشخيصية احيائية لهذه الحياة, و بين الاله الذي يمنح عقود امتياز و احتكار و تفضيل و حب بطريقة انسانية بحتة, تشبه العلاقة بين الاب و الابن (أو كما يشتهيها الابن). و نستطيع أن نرى كيف صاغ ابرهيم الهه من الأفكار المسبقة التي كان يحملها في عقله أثناء سعيه "للوصول" الى هذا الاله, و أيضا أثناء مخاصمته للاخرين. فمثلا يقول "لا أحب الافلين" من أين جاء بهذه الفكرة؟ و لماذا لا يكون رب الانسان من الافلين؟ لا يوجد

شيء يمنع ذلك في واقع الحياة, فالاب و الأم و هم أول الأرباب هم من الافلين, الشمس التي بدونها كنا متنا هي أيضا من الافلين. و لكن نستطيع أن نعرف الجذر النفسي لهذه الفكرة, و هو أنه كان متأثرا بأفول شخص محبوب له أو شيء, و بالتالي و لتفادي الالام في المستقبل اختار أن لا يعلق نفسه بشيء يمكن أن يزول. و أفول أمه قد يكون هو الدافع الأكبر لتكوين اله لا يأفل. و من قرائن ذلك هو أن الهه يشبه الأم في حنانها و رحمها, فهي التي "خلقته" و هي التي "أطعمته" بالرضاعة و بعدها و "سقته" من لبنها الدافئ الذيذ, و هي التي يطمع أن تغفر له ذنوبه عندما يخطئ (و الله أعلم ما هي هذه الخطيئة!) و أيضا كونه توصل في النهاية أن ربه يحوي العالم كله في نفسه "وسع كل شيء" كما أن رحم الام يسع الابن فهو به محيط. و أيضا كونه أعلى من السموت و الأرض و يحويهما في وجهه اذ أينما تولوا فثم وجه الله, فهذا التصور يطابق شعور الطفل و هو داخل رحم أمه. اذ الرحم يسع كل شيء بالنسبة للطفل, و أينما يولي فثم أمه! فاله ابرهيم مزيج من اسقاطاته الأبوية و الأموية.

و أيضا نرى نزعة الأمومية في اله ابرهيم في كون ربه "اصطفاه" و اتخذه خليلا. فمن الناحية الوجودية فان الوجود لا يحابي أحدا و يصطفي أحدا على مثال ما يحصل في عالم الانسان. فوجود الرغبة في الاصطفاء هي ليست أمر حقيقي و لكنه امر نفسي (و هو حقيقي بالنسبة الى النفس طبعا). هو رغبة نفسية ناتجة من الكبرياء الجوهري. و كل ابن يتمنى ان "تصطفيه" أمه و تتخذه خليلا من دون الناس.

فابرهيم صنع او "اكتشف" ربه على طريقة تجعله يملك أن يقول عنه ما يشاء و ينازع به من يشاء. فاذا كان يجادل عباد الهة أخرى فان الله يصبح هو عين الطبيعة و الحقيقة المتعالية عن اهواء الناس و مصالحهم الدنيوية. و لكن اذا أراد أن يذبح ابنه (و قد حللنا هذا المشهد في مقال اخر فلا نعيد) و اذا أراد ان يبني بيتا ليجلب اليه الناس و يتكسب من ورائهم و اذا أراد أن يصدر أوامر تطاع بلا جدال فعندها يتحول الله الى كائن أشبه بفرعون سماوي خفي يستعمل ابرهيم كوسيط للتواصل مع الناس (و لا أدري ان كان الله في كل مكان كما يقولون فلماذا يتخذ رسلا, انما يتخذ الرسل الكائن المحدود الذي يرغب في التواصل مع من لا يستطيع أو لا يرغب في التواصل معها بنفسه!) فهذه الهلامية ضرورية لمن يريد أن يخلق دينا و يصطفيه لابناءه. يجب أن يكون الاله مزيجا بين شدة العدم و شدة الوجود و بذلك يستطيع أن يفعل به ما يشاء حينما يشاء, و الله من وراء القصد بالطبع!

و أما عن كون الأنانية المفرطة هي دافع ابرهيم في خلق ربه. فتأمل في هذه الكلمات " افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم و لا يضركم" و " لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و لا يغني عنك شيئا" و "يهدين-يسقين- يشفين- يغفر لي" و " فابتغوا عند الله الرزق" ماذا لو قالوا له أنهم يعبدون الهتهم حبا فيهم و بدون أي رغبة أنانية, و لكن عن

عشق و اخلاص مطلق, كما يقول فعلا أكبر العارفين من عباد الله؟ و أما ابرهيم فيظهر ان علاقته مع ربه هي علاقة نفعية محضة. فاذا كان الله لن ينفعك و يضرك (ماديا بالطبع, اذ لا يتصور أن عباد الاوثان لا ينالون منافع معنوية من عبادتهم, أو أنهم لا يكسبون بعدا عن الكثيرمن الأضرار النفسية و أيضا بعض من المادية عن طريق عبادتهم, اذ معلوم أن العقيدة بغض النظر عن مضمونها و مطابقتها للواقع فانها تؤثر في الواقع النفسي و الافاقي أحيانا كذلك) فلا فائدة من عبادته اذن. فانتبه جيدا أن مقصود ابرهيم, ان كان له قصد واضح أصلا, هو أن الاله يجب أن ينفعك ويقيك الضرر و يغني عنك شيئا حتى يستحق منك الالتفات. فلا يوجد شيء اسمه عبادة الاله لانه مستحق لها بذاته, و ما شابه ذلك من مقولات العارفين و العشاق على مر العصور. العبادة عند ابرهيم هي مجرد وسيلة. وسيلة الى كسب المنافع المادية ( و المعنوية كذلك, و لكن كما عرفنا فان هذه موجودة في أي عقيدة) فالعقيدة و العبادة وسيلة الى المنفعة فقط. و بدون ذلك لا قيمة لها و لا يهمنا أصلا أن نلتفت الى هذا الاله الذي لا ينفع و لا يضر و لا يسمعنا و لا يبصرنا (أي فائدة في أن يرغب الانسان بأن يكون الهه "يبصره"؟ لاشك أنها الرغبة في الاهتمام, في نيل الاهتمام من الاخر, و هذا انعكاس اخر لفقدان الأم فتأمل) و لا يغني عنا شيئا (و هذا أيضا انعكاس للرغبة في أب قوي يحمي و يكفينا أمر معيشتنا) . فالله هو وسيلة ابرهيم في كسب المال. و لذلك ابتكر الحج. و انظر الى المليارات التي يكسبها اليوم ابناء ابرهيم لتعرف مقدار قوة رب ابرهيم!

فاذن و كما رأينا, فان ابرهيم معقد نفسيا, و قد انخلق دينه كانعكاس لعقده النفسية و رغباته المادية. و للحق نقول أن ابرهيم أعظم مريض نفسي مر على هذه الأرض! و كلنا مثل ابرهيم, الا أنه يغلب على الظن أن أكثرنا لن يكون الا من الغنم الذين يحلبهم أمثال ابرهيم.

سيف ابوطالب العرفاني

على

رقبة الدين الالهي

ما أحقر الذي يسلّم بما لم يفهم, و ما أعظم الذي يتبع البينات و لو قادته الى قعر جهنم.

يوجد لكل فكرة قاعدة تقوم عليها, و اذا أردنا أن نفهم أي فكرة باحاطة علينا أولا أن نفهم قاعدتها و نفحص قوتها. و أن من أهم, أن لم يكن أهم فكرة على الاطلاق و الأكثر تأثيرا على حياة الناس هي فكرة "الاله". و للناس عامة ثلاثة مواقف من مسألة الاله: فمنهم من لا يبالي بها أصلا و يراها مضيعة للوقت اما لأنه درس المسألة أو لأنه يريد أن يؤمن بالاله و لا يريد أن يخاطر بهذا الايمان عن طريق البحث و الجدل, و منهم من يهتم بالمسألة و لكنه يبحث فيها من منطلق أنه يريد أن يؤمن و بذلك يكون بحثه شديد التحيز من البداية و لن يرى من البينات الا تلك التي تؤيد ايمانه السابق و قد يتغير فيه شيء أو بعض شيء و لكن بصورة عامة هو قد بدأ مؤمنا و يريد أن ينتهي مؤمنا و لذلك سينتهي مؤمنا, و منهم الذين يبحثون بأعلى حياد ممكن (نعم قد لا يكون محايدا مطلقا اذ لعل هذا من المستحيلات, و الذي يدرس النفس و اللاشعور و طبيعة الحياة سيرى أن الحياد المطلق يكاد يكون مستحيلا) و آية هؤلاء أنهم ينظرون في كل دليل و يمحصون كل حجة و يظهرون كل اعتراض أو تأييد لهم, فالتحيز السيء هو الذي يقصي بعض الادلة, أما كونه متحيزا أو محايدا من الناحية النفسية فهذا كما قلنا أمر شديد التعقيد و لا حاجة لنا هنا بشرحه و انما يكفينا أن ننظر في كل الأدلة و نجادل أنصارها ثم نرى لمن يحكم العقل. و لا يقال ان "العقل لا يستطيع ان يخوض في هذه المسائل" لان القرءان نفسه استدل بالعقل و الحجج .

أما عن الفرقة الأولى التي لا تبالي فهؤلاء نحن لا نبالي بهم أصلا, اذ انما نكتب لمن يريد أن يدرس و يفهم. و لعلنا نكرس مقالا خاصا لتحليل نفسية هؤلاء و قد ينفع هذا في ثنيهم عن لامبالاتهم. و بكلمة واحدة أقول لهؤلاء: ان عدم المبالاة لن يغير شيئا من الواقع, بل انها دليل عقدة نفسية و سترون اثارها المضرة في حياتكم و أحلامكم, و يشبه عملكم عمل الرجل الذي دخل الغابة, و لما رأى أسدا أمامه, أعطاه ظهره و أغمض عينيه و راح

يكرر على نفسه-لعله يقتنع: لا يوجد أسد! لا يوجد أسد! لا يوجد أسد! و عمله هذا سيجعل الأسد يستمتع بأكله على أنه وجبة عشاء راقية. و للأسف, و حتى في هذا القرن الملئ بأسباب الراحة, خاصة اذا قارناه بالقرون قبله, و مع ذلك فان الكثير من الناس ان لم يكن أكثرهم من أهل هذه الفرقة.

و أما عن الفرقة الثانية التي تريد أن تؤمن و قد اتخذت قرارها مسبقا فهذه أهون حالا من التي قبلها. و لعل أهل الفرقة الثالثة اذا اجتهدوا في ايصال فكرهم الى أهل هذه الفرقة فلعلهم يتأثرون الى حد ما. و الأمر الايجابي في هؤلاء أنهم يدّعون, على الأقل أمام أنفسهم, أنهم من اتباع الحجة و العقل و العلم و ما شابه. فلو عرض عليهم شيء فأغلب الظن أنهم سيأخذونه في الحسبان. و الأجمل من ذلك هو اذا عرض أحد أهل الفرقة الثالثة على شخص من هذه الفرقة ان يقوموا بمناظرة أو مجلس حوار علني, فعندها لن يكون أمامه الا ان ياخذ في الحسبان و بدقة كل كلمة يلقيها خصمه أو صاحبه. و يساوي هؤلاء في التعصب المسبق الذي يريد أن يرفض الاله ايضا مهما كلف الأمر فيضطر الى أن يغفل أمورا و يحرف أخرى.

و أما الفرقة الثالثة فهي التي لا تبالي أين ينتهي بها الأمر, انها تتبع الدليل أينما مال تميل. و المضحك في الأمر أن كل الناس تدعي أنها تتبع الدليل أينما مال تميل. حتى أصحاب الفرقة الأولى. و لكن ما هذا الا كلام و لغو غير محقق فيه. و هم يأخذون أجزاء دليل و يعتبرونه دليلا كاملا لا يختلف عليه العقلاء بزعمهم. كمثل الذي يقول انه دعا الله و استجيب دعاءه فهذا دليل على ان هذا الاله موجود و أن دينه حق, فلو صح هذا أيها العاقل لكانت كل الالهة على مر العصور موجودة اذ لم يوجد اله الا ووجد من يدعونه و لا شك أنه قد تمت استجابة او تحقق ما كان يدعوه بعض هؤلاء الناس, فهل تقبل أن يكون هذا دليل على وجود الهتهم و صحة أديانهم؟ أو كالذي "يشعر" بالراحة عندما يذكر اسم الهه فيجعل هذا دليل على أن الهه حق و أن المذهب الذي هو عليه حق, و ما يتغافل عنه هذا أنه حتى الأفريقي الساكن في الادغال و الذي يعبد شتى أنواع الالهة يشعر كذلك بالراحة النفسية و القوة بل لعلها قوة لن يملكها أكثر أتباع الاديان المسماة سماوية, فهل هذا يعني أن الهة هذا البدائي حق و أن دينه كذلك حق؟ و هكذا و غير ذلك من أمثال هذه "البراهين الطفولية" التي يظهر ان غالبية الناس تحسبها قمة التحقيق و الرقي الروحاني.

لقد قرأت قصة منذ فترة, و لا يهمنا مقدار صحتها اذ كل ما نريده هو العبرة المعرفية منها, و هذه القصة تدور حول حوار دار بين رسول الله محمد و بين عمه أبو طالب. و سنجعل هذه القصة منطلقنا في هذا المقال, و الذي أعتبره أهم و أكبر مقال يمكن أن يكتب في نقد الدين الالهي, أي الذي يؤمن بالاله الشخصي, و سنجعل كلامنا من

منطلق الاسلام و القرءان, مع العلم بأن نفس الحجج التي سنذكرها هنا يمكن أن تقال لكل دين يؤمن باله أو الهة بنفس الحدود الكبرى التي يعتقد بها الاسلام.

القصة: أن محمدا قال لأبي طالب: اني رسول الله الى الناس. فقال أبو طالب متعجبا و معارضا: جلّ الله عن ذلك!

ان صرخة أبوطالب في وجه مدعي الرسالة هي سيف ذو الفقار الحقيقي, و تكمن فيها البينات التي تظهر بطلان هذه الدعوى من الناحية العرفانية. أن أكبر معضلة أمام الدين الالهي هي الاجابة عن صرخة أبوطالب هذه, و الدين الالهي لم يجب و من خبرتي أقول أنه لن يجيب عنها, و ارجو أن تكون خبرتي خاطئة.

(المعضلة الكبرى)

يوجد مقولتين اذا صحت احداهما فالثانية خاطئة و لا يمكن الدمج بينهما باحسان. المقولة الأولى هي "الله مطلق الذات" و الثانية "الله أرسل رسولا". هذه هي الخلاصة المفيدة النهائية, و تستطيع أن تتوقف عن القراءة اذا شئت اذ لم يتبق منّا الا أن نشرح هاتين المقولتين و نظهر سبب عدم امكانية الجمع بينهما باحسان, بالرغم من ان الذين اعتادوا الدراسة و التأمل سيفهمون المطلوب فورا. و حيث اننا نكتب لكل الناس فعلينا أن نفصل الأمر تفصيلا.

"الله مطلق الذات" هذا يعني أن الله لا يحده حد, و هو بذلك يكون داخلا في كل حد, بل عندها تنتفي الحدود. و يكون الله هو الموجود الوحيد. أو الوجود الوحيد. الذات المحدودة هي المخلوقة التي لها قدر معين, و توجد بالتالي في مكان معين دون اخر. فأنت أيها القارئ أو السامع محدود في جسمك مثلا, فأنت هنا و لست هناك. أنت على الأرض و لست محلقا في السماء, الا اذا كنت تقرأ هذا المقال و أنت في طائرة, و عندها تكون في السماء و لست على الارض. و هكذا, فالمحدودية تعني أنك مخلوق لك قدر معين في ذاتك. أما الله فيفترض أنه "مطلق" بمعنى أنه لا يحده شيء, لأنه هو الذي خلق الحدود. الان الوجود فيه خالق و مخلوقات. فقبل أن يخلق الخلق لم يكن ثم الا الله. و بالتالي يكون هو وحده في الوجود, بل هو الوجود لا غير. لا متناهي. فعندما أراد أن يخلق, أين خلق؟ لا يمكن أن يكون قد خلق العالم خارج ذاته اذ لا يوجد "خارج" اذ هذا يعني أنه محدود. و لا يمكن أن يكون انه خلق داخل ذاته, اذ هذا أيضا يعني انه محدود يوجد فيه فراغ ليخلق فيه. فاذا لم يكن قد خلق "خارج" أو "داخل" ذاته, فلم يبق الا احتمالين: اما أن فكرة الله غير واقعية أصلا. و اما أن الله خلق العالم في شيء يشبه مخيلتنا نحن

الناس, اذ عندما تتخيل شيء فهو ليس داخلك (اذ لو فتحناك فلن نرى فيك شيئا ) و هو أيضا ليس خارجك (و هذا بديهي من المشاهدة) فأقرب مثال على محل الخلق بالنسبة لله المطلق هو انه نفس محل الخيال منا نحن الناس. و هذا الرأي الثاني هو رأي العارفين المحققين و لذلك يقولون كلمات مثل أن "العالم وهم" أو "العالم خيال في خيال" أو "لا يوجد عالم أصلا" و ما أشبه. اذ لو تأملت في مسألة "المكان الذي خلق الله فيه العالم" لن تصل الا الى أحد بلدتين: بلدة الالحاد, و هذا هو الرأي الأقوى, او بلدة الخيال و العدمية و الحيرة. و لذلك يقول أحد العارفين أن "الحيرة قمة المعرفة" و ذلك لأنه و أمثاله لم يرغبوا في أن يعيشوا في عالم ليس فيه الههم.

و لكن لنأخذ نحن في هذا المقال بالرأي الثاني, أي رأي العارفين الذي يرى أن الله مطلق الذات, و لنغض البصر قليلا عن حجج الالحاد الذي يرفض نظرية الله المطلق أصلا بناء على أنها تفترض مستحيلا. فالان نحن نرى أن الله مطلق الذات.

"الله أرسل رسولا" هذه تقتضي أن الله محدود الذات. لأن الذي يرسل رسولا ليبلغ أمره الى الاخرين فان هذا يقتضي أنه غير موجود في المحل الذي يوجد فيه الاخرين (كالساكن في اوروبا الذي يريد أن يتواصل مع الساكن في افريقيا ), أو أنه لا يعرف كيف يتواصل معهم ان كان معهم في نفس المحل (كالفرنسي الساكن في جزيرة العرب و لا يعرف العربية) , او أنه لا يرغب في أن يتواصل بنفسه مع الاخرين بالرغم من كونه معهم (كالملك القابع في قصره و الذي يرسل الرسل و الوزراء ليبلغوا أمره للشعب). فأي هذه الاحتمالات هو المفترض في حق اله الرسل؟

أما احتمال أنه "غير موجود في المحل الذي يوجد فيه الاخرين" فهو غير وارد لأن الله مطلق الذات و هو في كل مكان. فقبول هذا الاحتمال يعني أن الله محدود و بالتالي مخلوق له قدر معين و مكان معين يحده.

و أما احتمال أنه "لا يعرف كيف يتواصل مع الاخرين" فهذا غير وارد على الاطلاق و لا حاجة للتفصيل. و الذي جعله يعرف كيف يتواصل مع أحد البشر يجعله يعرف كيف يتواصل مع البقية. و لا شك أنه لا يوجد أحد يدعي أن الله يجهل كيفية التواصل مع الناس ان أراد. فهو مطلق العلم و القدرة والحكمة و الرحمة. على الأقل هكذا نفترض.

و أما احتمال أنه "لا يرغب في التواصل بنفسه مع الاخرين" فلماذا يرسل رسل اذا ليبلغوا كلامه؟ و لماذا لا يرغب في التواصل بنفسه؟ هل تعب من ارسال فرد بكتاب و هو لا يريد أن يجهد نفسه كثيرا؟ هذا مستحيل لان الله كلي القدرة. هل يترفع عن مخاطبة الناس؟ هذا أيضا مستحيل, لأن الله ليس هارون الرشيد أو ملكة بريطانيا, فالناس مخلوقاته و هو فيهم و هم فيه اذ هو مطلق الذات, و أيضا على فرض أنه يترفع فعلا فلماذا أنزل كتابا؟ و على أية حال, بالرغم من أن كل هذه الحتمالات مرفوضة و مستحيلة, فحتى اذا افترضنا صحتها, فاننا لن نتواصل مع كائن لا يرغب في التواصل معنا بنفسه. و الدين الالهي نفسه يمنع وجود وسائط بين الانسان و ربه-على المستوى الوجودي على الاقل "فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان". و كل الأسباب الممكنة التي تمنع الكائن من الرغبة في التواصل مع الاخرين بنفسه كل هذه الأسباب منتفية في حق الله العظيم. و لو فرضنا جدلا للمرة العاشرة أن أحد هذه الأسباب يمكن أن يكون متحققا في الله, فان هذا سيعني أن الله ناقص في ذاته و سيحيل الله الى شيء يشبه البشر, و ليس أي نوع من البشر و لكن بشر من النوع العامي, يسكن في السماء. و لا أحسب أن نظرية الدين الالهي تقبل هذا اذ هذه الاديان تصور الله على أنه عظيم الى أبعد حدود العظمة و الاطلاق.

و من زاوية أخرى, فان كون الله عظيم لامتناهي في نفسه تقتضي أنه لا يوجد مخلوقات أصلا!! تأمل جيدا! لان الله يكون ليس فقط "في كل مكان" و ليس فقط "في كل شيء" و لكن أنه هو كل شيء, بل لا يوجد "كل" شيء, اذ هو الشي الوحيد. فكلمات مثل "في" تعني الظرفية المكانية وتقتضي الغيرية, أي ان الله غير هذا المكان و لكنه فيه, و هذا بحد ذاته خاطئ على فرض أن الله مطلق الذات, لأن الله لا يمكن ان ينفصل عن شيء ليكون "فيه", هو هو كل شيء, هو هو الشيء الوحيد. و من هنا يعبر العارفين بقولهم "هو العقل و العاقل و المعقول" أو "هو العشق و العاشق و المعشوق" و ما أشبه من مقولات الوحدة الوجودية المفرطة, بل هي من أول مقتضيات كون الله مطلق الذات فلا يوجد افراط و لا شيء, انما هو مترتب بديهي على فكرة الله اللامتناهي. و بذلك لا يصح أصلا أن نقول على الله أنه "رب" لأن هذا يقتضي المغايرة بينه و بين الاخرين أي العبد. و هذا يعني نوع من الانفصال بين الذات الالهية و الذات المخلوقة. و هذا يعني أنه يوجد أكثر من ذات في الوجود, فمن أين بل كيف جاء هذا التعدد في الذوات أصلا؟ يستحيل أن يقسم الله نفسه و يجزءها. و المخارج الفلسفية التي يحاول ان يتملص بها اهل هذا التصور, كمثل مقولة "التشكيك في الوجود" بمعنى ان للوجود درجات, هي ايضا مرفوضة في ظل الاعتقاد بالوحدة المطلقة لذات الله و بساطتها المنبسطة بلا منافس او سبب اصلا للتدرج.

و من زاوية ثالثة فان كون الله لامتناهي و أنه كان وحده قبل أن يخلق الخلق ( على فرض وقوع الخلق!) فمن أين طرأت فكرة خلق العالم على عقل الله (ان صح التعبير) ؟ تصور الان ان الله وحده لامتناهي في نفسه و هو الوجود المطلق و لا يوجد أي مخلوق و لا شيء غيره. حسنا. الان أصبح الله يريد أن يخلق؟ هذه الفكرة, هذه الارادة, هذه

الرغبة, هذه المشيئة سمها ماشئت, من أين جا ءت؟ كيف طرأت؟ كيف تغير الله بعد أن كان وحده و أصبح يرغب في خلق غيره؟ ان الحدوث يقتضي سببا, و اذا لم يكن ثم الا ذات الله المطلق فهذا يعني أن السبب لا يمكن الا أن يكون هو ذات الله المطلق, و لكن المعضلة أن ذات الله المطلق كانت موجودة دائما, فهذا يعني أن السبب الباعث على الخلق كان موجودا دائما, و بالتالي يعني ان المخلوقات كانت موجودة دائما. و هذا ينافي كون الله هو الخالق, أو الأصعب من ذلك أنه خالق "بارادة و اختيار" . و هذا ينفي كون المخلوقات حادثة , بل يعني أنها كانت موجودة دائما و لا يتصور أصلا حدوث أي تغير(و هذا ينافي الواقع المتغير) .

يلزم بالضرورة عن وجود الخالق المطلق انعدام المخلوق. و بالتالي فان وجود المخلوقات (المشاهد!) ينفي وجود الخالق المطلق.

و حتى لو غضضنا البصر عن كل ما فات من معضلات, فان كون الله مطلق الذات و القدرة و العلم و الرحمة يعني ان الله يستطيع بل من المتوقع منه ان يكلم كل فرد وحده و يعطيه النور و الأمر مباشرة بدون أي وسيط مهما كان. ان كان الله يريد فعلا هداية الناس, و ان كان الضال فعلا سيؤول الى جهنم و بئس المصير, فان الرحيم الكريم لن يخاطر بارسال فرد أو حتى مجموعة أفراد كرسل, و بلغات معينة فقط, فان هذا من سوء التدبير و التهور على أعلى المستويات. فان الله لا شك و أنه يعلم أن الناس لا يمكن أن تجمع على القبول برسول معين من الناس, و هذا من مقتضى جوهر نفوسهم. و أيضا هذا يفتح أبواب التكذيب بسبب التهم التي توجه الى هذا الرسول. و أيضا يمنع من انتشار علم الله في كل مكان و وصوله الى كل فرد. اذ لن يتعلم كل انسان العربية ليفهم القرءان, بل ان أهل العربية أنفسهم أكثرهم لا يفهم القرءان بل و لا يقرأه. و ارسال كتاب معين يؤدي الى الاختلافات و نشوء الفرق و الأحزاب, بغض النظر عن الأسباب ان كانت معقولة أو مجرد تعصب و رغبة في الكفر. و وجود رسل يعني وجود طواغيت عاجلا أم اجلا, اذ سيأتي هؤلاء و يزعموا انهم ظل الله على الأرض و حراس دينه و هذا يفتح أبواب جهنم (و قد فتحت فعلا!) . و يوجد الكثير من الاعتراضات التي يكفي واحدا منها ليثبت ان ارسال رسول أو رسل معينين هو عمل غير حكيم و غير رحيم بل اننا نحن الناس لا نقوم بمثل هذا العمل لعلمنا بسوءه و سوء عاقبته. و هذه ليست نظريات خيالية, كل اعتراض من الاعتراضات المتوقعة من ارسال رسل معينين قد تحقق فعلا و لا نزال نعاني من اثاره الى يومنا هذا, بل و الى أن ينمحق الدين الالهي من على وجه البسيطة.

أيهما أحسن و أقوم: ان يعطي الله كتابا لفرد أو يعطي كتابا لكل فرد؟ لقد رأينا عشرات الاضرار و المخاطر في الاحتمال الأول, أي ان يعطى الكتاب لفرد و يؤمر بابلاغه للناس. و اننا لم نرى و لا ضررا واحدا يستحق أخذه بعين

الاعتبار للاحتمال الثاني. ان الرسل الذين يتجلى لهم الله بنوره يظهر أنهم شديدي التعلق بالدين و تنظيم الحياة كما يأمر الله (هذا اذا صدقنا القصص التي يكتبها اتباع هؤلاء الرسل أو هم أنفسهم!) أفلم يكن من الأحسن و الأقوم للحياة أن يتجلى الله لكل انسان كما تجلى لهؤلاء الرسل؟ و لا أحسب أن الله سيعجز عن ابداع كتاب يناسب كل فرد و تاريخه النفسي و الاجتماعي. و تستطيع أن ترى كيف أن القرءان يخاطب محمدا و يراعي مشاعره النفسية و حالاته الاجتماعية و غير ذلك. فلماذا لا يعطي الله كل انسان مثل هذا؟ أليس هذا سيجعل كل الناس أو غالبيتهم الساحقة تتبع الدين فعلا, و بذلك نرى الحياة و قد تحول فيها كل الناس فعلا الى خلفاء لله على الأرض (و هذا بحد ذاته مشكل, لأن الخليفة لا يكون الا حيث لا يوجد المستخلف, فان كان الله في كل مكان فأي خليفة يتخذ!). ان الأقوم, و هو ما يلزم من النظر في طبيعة النفوس و الحياة, و أيضا ما يلزم من دراسة القرءان نفسه, هو أن يعطي الله كتابا لكل فرد بما يناسبه من جميع النواحي. و بما ان هذا لم يحصل, فاننا نشك بل نرفض أن يكون الله قد اختار فردا و أمره أن يهدي الناس, اذ ان الله لا يأمر بالفحشاء و لا يأمر بالظلم و لا يتبع سبيل المفسدين المفرقين بين الناس و المقسمين الناس الى شيع وأحزاب.

على فرض وجود الله كما يصوره الدين الالهي, فان الله لا يمكن أن يتخذ رسلا. ان الله أرحم و أعظم من أن يفرق بين الناس, و لا يعمل الله الا الأقوم و الأتقن و الأحسن و هذا يقتضي أن يعطي كتابا أو يعطي نوره و رسالته الى كل فرد بما يناسبه. فاذن دعوي الدين الالهي يلزم عنها أمرين: أن الهم باطل من مبتكرات رغباتهم و طموحاتهم ,أو أن الرسل كاذبين و مجانين فعلا.

و للننظر في قصة أخرى من قصص القرءان الكريم و التي تكشف لنا عن امر هام جدا يتعلق بموضوعنا. و هي قصة مريم عندما جاءها رسول ربها ليهب لها ولدا بطريقة اعجازية خارقة لسنت الله في الافاق. عندما نطالب بأن يرسل الله رسولا خاصا من الملائكة لكل فرد من الناس على حدة يقال لنا أن هذا مستحيل أو غير ذلك من ردود لا تصمد أمام العقل المحترم و لا أمام القرءان ذاته. فها هو الله يرسل رسولا خاصا لمريم, و ليس لكي يثبت لها وجود الاله او عالم الغيب أو يكشف لها التعاليم الربانية ( و هذه هي أهم الأمور في الحياة كلها, و هي الأمور التي تذابح الناس حولها و لا يزالون) لا ليس لكي يكشف لها عن كل هذه الأولويات المهمة جدا و لا يمكن الاستغناء عنها بحال, و حتى يومنا هذا لا تزال الغالبية العظمى من الناس من المتدينين بدين ما متنازعين و متذابحين و متسافكين حول أيهما أحق و أيهما يجب أن يسود و غير ذلك مما هو معروف. لا . و لكن لكي يهب لها غلاما بطريقة خارقة و يعرضها للاتهام بالزنا (و هو اتهام مبرر من حيث أنه عمل مخالف لعمل سنت الله التي لن تجد لها تبديلا أو تحويلا, فتصور أن ابنتك العذراء جاءتك يوما و هي حامل ثم ادعت أن "روح الله" هو الذي نفخ في فرجها فحملت, ثم أرني ان كنت تؤمن فعلا بهذه القصة كما تدعي أيها المؤمن الصادق المسلم تسليما!). و بالطبع لا أحسب أن

أحدا سيبرر عمل الهه هذا أي بعدم ارسال رسول خاص من الملائكة لكل فرد, بأن عدد الملائكة عند الله قليل و لا يسعهم القيام بالمهمة. و أيضا لا أرى أحدا سيدعي بأن الملائكة لا تستطيع أن تظهر في هذا العالم, أي عالم الافاق, اذ ها هو الملاك قد ظهر لمريم, و "تمثل لها بشرا سويا". فليتمثل بشرا سويا لكل الناس أيضا.

فمهما قلبنا وجهات النظر, و مهما سلمنا بما لا يسلم به, و مهما تنزلنا بما لا يفترض التنزل عنه, فان دعوى الدين الالهي كاذبة جاهلة, لا يقال عنها في أحسن الأحوال الا أن أصحابها فعلا مجانين, و في أدق الأحوال أنهم طغاة كاذبين.

فهذا القلب الانساني و عقله لا يمكن أن يقبل فكرة الاله هذه و الرسل. فاما أن الاله غير موجود و اما أنه موجود و لكنه لا يريد منا أن نعرفه ,اذ هو الذي يفترض أنه خالق هذه القلوب. ولذلك لما قال أحد السفهاء "اذا لم يكن الاله موجودا فيجب أن نخلقه" رد عليه أحد الحكماء "بل اذا كان الاله موجودا فيجب أن نقتله" .

وهذا معنى صرخة أبوطالب: جل الله عن ذلك!

(قوم جحا )

سمعتم و لا شك عن قوم لوط و قوم نوح و قوم موسى و هذا جيد, و لكن يوجد قوم أهم من هؤلاء اذ يدخل تحت هؤلاء القوم أكثر أو كل الناس في مرحلة من مراحل حياتهم و الاكثرية يقبعون بينهم حتى تأتي ساعة الموت, و هؤلاء هم قوم جحا. جحا هو الغبي العبقري المشهور, الذي يقال له أيضا "ملا نصر الدين" صاحب القصص و النوادر المعروفة على مستوى العالم. و محور هذا الباب هو عن احدى هذه القصص الرائعة.

يقال أن جحا كان يملك أحذية كثيرة, و لكنه قرر في يوم من الايام أن يخرج الى العمل مرتديا حذاءا شديد الضيق, أصغر من مقاس رجله بكثير, و ما استطاع أن يدخل رجله فيه الا بشق الأنفس. ثم خرج الى العمل, و طول النهار و هو يتعذب في هذا الحذاء الصغير الغير مناسب على الاطلاق, و الناس تنظر اليه و وجهه يزداد احمرارا و أمارات الجحيم مرسومة على ملامحه. فلما انقضى النهار و عاد الى المنزل استقبلته زوجته, فتعجبت من منظره و فزعت قائلة "ما هذا! لماذا أنت في هذا الألم كله؟! لماذا أرتديت هذا الحذاء الصغير الضيق و أنت تملك كل هذه الاحذية المناسبة؟!" فقال لها "أيتها الحمقاء! انظري اليّ لتفهمي" فاذا بجحا يذهب الى الأريكة, و يجلس عليها, و يفك رباط الحذاء على مهل, و يقلع الحذاء على مهل, و اذا بأمارات الارتياح و الفرحة تتفجر في وجهه, و اذا به يتهلل و يضحك من اللذة, فقال لزوجته " هل فهمت الان لماذا فعلت ما فعلت, لقد ضيقت على نفسي حتى اذا نزعت سبب الضيق ارتاح!"

لعلك تضحك على فعل هذا المغفل. و يحق لك أن تضحك, و لكن لا تنسى أننا كلنا نقوم بمثل عمل جحا هذا, و خاصة أهل الدين الالهي. فنحن نقوم بوضع أغلال على أنفسنا حتى اذا أزلناها شعرنا بالراحة. و لا يقوم بهذا العمل أحد مثل ما يقوم به أهل الدين الالهي. بل انهم يستعملون هذه الراحة التي يشعرون بها بعد أن يتحرروا من عبء الفروض و الواجبات الشرعية, و الأمل في التخلص من عذاب جهنم بسبب ايمانهم المزعوم, هم يستعملون هذا كأحد أقوى الأدلة على أن دينهم هو "الحق"! و الأدهى من ذلك أنهم يذهبون الى الذين تحرروا بالكلية من أغلالهم أو لم يضعوها أصلا و يقولون لهم :هل تشعر بالراحة النفسية و أنت في الحادك هذا؟ و لا شك أنهم يشعرون بالغبطة الشديدة و الاصطفاء عندما يستمدون الراحة بسبب قيامهم بطقوسهم المختلفة و آمالهم المستقبلية. هذه هي راحة جحا. و هذا ما نريد أن نبحث فيه في هذا المقال.

يوجد ثلاثة أنواع من الناس: منهم من لبس الحذاء الضيق لكي يشعر بالفرحة عندما يخلعه. و منهم من ألبسه أهله الحذاء الضيق و هو يرغب في التخلص منه و لكنه أدمن على الالم و الراحة التي تتبعه. و منهم من قرر أن لا يلبس الحذاء أصلا فهو راض بالحالة الطبيعية الأصلية للحياة. الفريق الأول هم المتدينين بالدين الالهي, و الفريق الثاني هم الذي أجبروا على التدين بالدين الالهي عن طريق التربية مثلا. و الفريق الثالث هم اهل التنوير.

يأتيني أحيانا المتدينين من الاحزاب و يقولوا: ألم تشعر بالكابة بعدما تركت ديننا؟ ألست تشعر بالخوف و القلق بسبب جهلك بما سيحل بك بعد الموت؟ كيف تشعر بالراحة و أنت لا تصلي؟

و جوابي باختصار: أنتم قوم جحا و لذلك تسألون مثل هذه الأسئلة. و هذا جوابي التفصيلي بالقدر الكافي.

أما عن الشعور بالكابة بعد ترك الدين .فاني لم "اترك" الافكار التي عرضها عليّ هذا الدين. فالفكر ليس كالدخول الى مسجد أو الخروج منه جسمانيا. التفكير تطور نفساني, و ليس بيدك أن "تدخل" أو "تخرج". نعم تستطيع أن تخادع نفسك لأسباب نفسية أو اجتماعية, أما من الناحية العقلية القلبية فالأمر ليس بيدك. فمثلا, اذا قيل لك منذ الصغر أن 5+5= 889. و نشأت و أنت على هذا الاعتقاد, و المجتمع حولك يعتقد بهذا.ثم لسبب ما بأدت تتساءل عن صحة اعتقادات مجتمعك, فاذا بتفكيرك يقودك الى أن 5+5=10, فهل تستطيع أن تزيل هذ الفكرة "الحقيقية" الجديدة من قلبك؟ بالطبع لا. انها استحالة و ليست مجرد حالة. و كذلك اذا بدأت في التفكير و وضع كل الافكار التي فرضت عليك منذ الصغر و بسبب اسرتك و مجتمعك, فانك لن "تترك" دينك و لكن سوف "تطور" عقلك. نعم قد يعتبر ترك للدين و لكن هذا المصطلح غير معبر بدقة و فيه الكثير من التشويه للحقيقة. فعلى العكس تماما ان تطوري و تجوازي للافكار الكاذبة و المضللة التي وضعها المجتمع في قلبي بدون اختيار مني لم يسبب لي الاكتئاب بل اني أشعر كمن كان مسجونا تحت الارض و يجلد كل يوم ثم يتحرر و يصبح يجالس الملوك. ان كوني كنت في الدين بقوة و عمق هو من أكبر أسباب شفقتي باخواني الذين لم يلحقوا بي بعد, اخواني المسجونين. الكئيب هو المتدين, ألست تراه غاضبا مكفهرا عابسا خائفا واهما في أكثر حالاته؟ ان اللذة العقلية التي نستمدها من البحث الحر المطلق الذي لا يبالي أين ينتهي به المطاف, و الذي لا يبالي برقابة متسلطة في نفسه, و يقول ما يشاء و يبحث فيما يشاء, و يجادل ما يشاء, و ينقد ما يشاء, ان هذه اللذة لم و لا و لن يذوقها أي متدين بأي دين سواء كان يزعم أنه "سماوي" أو "أرضي". الذي يسجن نفسه في قالب لا يمكن أن يكون له قلب. فرحة الحرية النفسية تكفي لنضحي بكل شيء في سبيلها. و لن يفهم هذا الكلام الا من كان مسجونا و تحرر.

أما عن بعد الموت. فلا أنا و لا أنتم نعرف فعلا ماذا سيحدث. ادعاء المعرفة لا يعني تحقق المعرفة, و الفرق عظيم و للأسف قلة فقط هم الذي يلاحظون هذا الفرق. أنتم "تدعون" أنكم تعرفون ماذا سيحدث بعد الموت, فاذا طالبناكم بالبرهان ان كنتم صادقين فلا برهان و لا يحزنون. و هذا متوقع, اذ أن مسألة "الاله" نفسها غير ثابتة بالمرة, بل و لو افترضنا جدلا أن لها أي مقدار من القوة فان ضعفها الذاتي يجعل بناء أي معتقدات أخرى عليها هو كبناء قصر على شعرة طفل! فان كان الاله الذي هو أكبر ما في الدين غير ثابت فأنى يكون الاعتقاد بأفلام و مسرحيات ما بعد الموت ثابتا؟ هذا بدون أن نخوض أصلا في تفاصيل الاعتقاد بما بعد الموت , او حتى بدون أن ننقده في السياق القرءاني أو الديني نفسه ( و قد فعلنا ذلك في كتاب اخر ) . فلو كنتم ستبتكرون أحلاما لما قد يكون بعد الموت و تستمدون منها الفرحة, فنحن أيضا نستطيع أن نبتكر أحلاما مثلكم, بل و أحسن منكم. و لكن للأسف نحن نتبع شيء اسمه الحياة الطبيعية و العقل البرهاني. فياليت كانت لنا القدرة أو العقد النفسية الكافية لنرضى بالاوهام الهستيرية. فما بعد الموت لا يخيفني على الاطلاق, بل العكس تماما اني متشوق اليه لأرى ماذا سيكون, فان كان ثمة حياة فعلا فالأمر جيد, و اذا وجد اله فعلا (و هذه كلها افتراضات سخيفة و لكن نوردها على سبيل الجواب عن تساؤلات قد ترد على خاطر الاطفال) و قال لي: لماذا لم تؤمن بي؟ فعندها سأجادله "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" و أقول له: يا سيدي, اذهب و اقرأ كتبي لترى ان كنت قد كفرت بك عن علم أو عن تعصب أعمى, فان وجدتني متعصبا أعمى فأنا راض بالنار خالدا فيها, و ان وجدتني قد كفرت على علم فلن أرضى منك بأقل من الفردوس الأعلى و أرجو أن تلحق بي اخواني من الابالسة و الشياطين. و أما ان لم يكن ثمة حياة بعد الموت فلماذا اقلق؟ اني لن اكون "حيا" حتى أشعر أنه لا توجد حياة! لا يهم كيف سنموت و لا ماذا سيكون بعد الموت, كلنا سنموت و لو كان يوجد شيء بعد الموت فوجوده لن يكون مرهونا باعتقادنا فيه, ان المهم هو كيف نحيا و ماذا سنترك بعد أن نموت. فعندما يسألني أحد: الى ماذا تعتقد أنه سيؤول أمرك عندما تموت؟ فان هذا يساوي عندي اذا سألني: الى ماذا تعتقد أنه سيؤول أمرك اذا أصبحت شيخا في الثمانين من العمر؟ و جوابي لكلا التساؤلين واحد: لننتظر و نرى! أما الان فانا مشغول باصلاح حياتي و من حولي بقدر استطاعتي.

و أما عن ترك الصلاة و الراحة. أنتم وضعتم و رضيتم بأن تعتقدوا (و دليل رضاكم أنكم لم تنقدوا معتقداتكم) بان الطقوس المسماة بالصلوات الخمسة مثلا أنها واجبة عليكم و أنكم اذا لم تقوموا بها فان ربكم المختفي سيغضب عليكم و بالتالي سيكون مصيركم الى النار, و هذا هو الحذاء الضيق الذي لبستوه, ثم تكون النتيجة المحتومة هي أن عدم قيامكم بهذه الفروض سيسبب لكم ألما نفسيا ناتجا من تصور العذاب و السخط و الطرد من الرحمة, و العكس اذا قمتم بهذا الفرض فانكم ستشعرون بالراحة بسبب تصوركم أنكم قد ابتعدتم عن النار و السخط الالهي. أما أمثالنا فنحن قد ألقينا حذاء جحا للكلاب ليقطعوه و يأكلوه ان ناسبهم. فنحن لا نعتقد بالهكم أصلا, و بالتالي لا نعتقد بالنار التي تتخيلونها, و لا نعتقد بأن هذه الطقوس هي فروض ملزمة أصلا, و لذلك لا ينتابنا أي

شعور بالقلق بسبب عدم القيام بها و لا شعور بالفرحة اذا قمنا بها. فمثلا, أنتم لا تقومون بالطقوس التي يعتقد أهل الديانات الاخرى أنها مفروضة من ربهم و التقصير فيها يجلب غضب الالهة, و لذلك لا تشعرون بأي ألم بسبب عدم قيامكم بتلك الطقوس. فكذلك نحن لا نشعر بأي شيء بسبب عدم قيامنا بطقوسكم.

فهؤلاء هم قوم جحا, ما أكثرهم! كل من يجعل على نفسه فرضا ليشعر بالراحة اذا ارتفع عنه هو من قوم جحا. و لا يلومن الا نفسه! و لا أقول ان المسألة سهلة, و لكنها تستحق التأمل و المجاهدة.

و كان الله في عونكم

(ما هي الفطرة؟)

يقول الكتاب "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم" ما هي هذه الفطرة؟

يفترض أن الانسان يولد على الفطرة. هذا القدر متيقن منه. و نحن نعلم من العلم و القرءان أنه "أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا" فالانسان يولد صفحة بيضاء ليس فيه أي قيمة أو فكرة أو عقيدة. فاذن النتيجة هي أن الالحاد هو الفطرة. الالحاد بمعنى عدم وجود أي دين من أي نوع في النفس. و هذا من مقتضيات "لا تعلمون شيئا" .

و على ذلك يكون "الدين القيم" هو الدين النابع تلقائيا من جوهر النفس و طبيعتها. فالدين الحق كامن في النفس ولو ترك الانسان و شأنه فانه سيتدبر أمر حياته. و بذلك تكون هذه الأديان و المعتقدات كلها طارئة على النفس و مخالفة للفطرة. الفطرة تقتضي الثورة. الثورة على كل سلطة.

فليس للانسان الطاهر دين معين. و أي دين يفرض على الانسان لا يعتبر دينه. و بذلك لا مكان لفكرة الردة اذ الطفل و حتى يبلغ سن معينة لا يعتد بكل تصرفاته أيا كانت, و حتى و لو كانت في منفعته. الأديان طغيان, بلا استثناء.

و من هنا نستطيع ان نبني بعض من القواعد الأساسية للحياة و محاكمة الأديان و الأفكار عامة:

أولا, لا يجوز تعليم الأطفال أي عقيدة من عقائد الاديان المنظمة. بل يكتفى بتعليمهم الأمور الجسمانية الطبيعية و النفسانية العلمية المشتركة بين الانسانية و المتفق عليها بصورة عامة و عليها براهينها الموضوعية الغير متحيزة الى فئة حزبية. و على فرض حدوث مثل هذا الطغيان فان الانسان لا يعاقب على خروجه و ارتداده على الدين الذي فرض عليه.

ثانيا, لا يجوز دعم أي قيمة أو فكرة بقوة السلاح الجسماني. بل يكتفى بعرض الأفكار سلميا, اذ الفكرة او القيمة الموافقة لطبيعة النفس ستتقبلها النفس بطريقة سلمية عاجلا أم اجلا. و كون القيمة تحتاج الى قوة السلاح الوحشي يدل على أنها منافية لطبيعة النفس و أنها طغيان من قبل ظالم يرغب في نفع نفسه على حساب أكثر الناس.

ثالثا, لا يجوز الاستناد على دعاوي غيبية لدعم قيمة انسانية. اذ طالما أن الدين القيم نابع من طبيعة النفس فهذا يعني أنه كامن فيها بذاته, و بالتالي لا يكون عمل الدعاة و المؤلفين الا نوع من التذكير و التثوير لاخراج هذه القيم من ظلمات اللاوعي الى نورالوعي. فأي قيمة تستمد مشروعيتها من أي فكرة غيبية-لا برهان عليها- هي قيمة ساقطة.

فباختصار نخلص الى الاتي: الفطرة هي الطهارة من كل فكرة. و الدين الطبيعي للانسان هو الذي ينبع من ذاته فقط. و يجب أن نترك النفس تنمو بالعلم الطبيعي و النفسي, و أن نستدل على قوة الفكرة بالكلام السلمي فقط, و أن نستدل عليه بحجج طبيعية قلبية فقط.

(لماذا يعبس عباد هذا الاله؟)

ان الدين سبب للغم عظيم. ألا تراهم يكرهون الفرح, أو الفرح التلقائي الحر! لماذا؟ هل يوجد اعتقاد ديني معين أو تصور ما يؤدي بنفسه الى هذه النتيجة؟ نعم, ان أسباب الغم و العبوس كثيرة في هذه الحياة, و لكن ما يهمنا هنا هو السبب الديني, و لنتذكر أن الدين و جنوده هم من أكبر اسباب الغم في هذه الحياة. و حتى مظاهر الفرح المزعومة في الدين فانها يجب أن تكون مقننة و مشرعنة و لها حدود غير طبيعية و لا فطرية. و يغلب على الدين الالهي مظاهر الغم المختلفة, و يكفي أن أعلى درجة في الدين هي أن تكون من العلماء الذي يخشون الله و يخافونه, و "لمن خاف مقام ربه جنتان" و ليس لمن أحب مقام ربه. و بعد التأمل في الأمر وجدت أن هذا العبوس المنتشر يرجع الى ثلاثة أفكار كبرى: قصة الهبوط, و قصة الحياة الاخرة, و الشعور بالذل بسبب الخضوع للاله.

أما قصة الهبوط. فهي القصة الشهيرة عن ادم و زوجته عندما عصوا الاله فطردهم من الجنة و هبطوا الى الأرض. فهذه العقيدة تعني أن كوننا على الأرض هو بسبب "معصية" و أنه "عقاب" . و بالتالي فان حياتنا يجب أن تدور حول محور "التوبة" . لاحظ أن الكلمات التي تقوم عليها حياتنا هنا هي كلمات سلبية. و السلبية أم الغم, و الجهل أبوه, و العابس التعيس ابنهم القبيح. بل حتى وجودنا على الأرض معبر عنه بكلمة تجرح بحد ذاتها جوهر نفوسنا, أي فكرة "الهبوط" . فالهبوط يعني أننا كنا في حالة أعلى و أكمل, و الان نحن في حالة أدنى و أنقص, و نحن نعلم من هيكل النفس أن منبع الألم هو "الشعور بالنقص" و هذا بدوره ينتج عن مقارنة "الواقع" ب "تصور الكمال". فعندما يكون في تصورنا للكمال بسبب هذه القصة أن الحياة في السماء أو الجنة هي الكمال و أننا كنا هناك, ثم نرى واقعنا على أنه حياة على الارض و منفصلة عن الجنة الأولى, فهذه المقارنة تولد تلقائيا و لو لا شعوريا, شعورا مستمرا بالألم. فطالما بقي هذا التصور عن الكمال فان الانسان المتدين سيكون في ألم, و سلبية و غم, شاء أم أبى. و لا مخرج من ذلك الا بقتل التصور أو الموت عن الواقع. فالمتدين في عذاب مستمر الى أن يموت بسبب قصة الهبوط هذه.

و يشبه هذا مثل الرجل الذي رأى نفسه في يوم ما يحيا حياة متواضعة مناسبة. فاذا بأناس يعرضون عليه صور و حقائق تشير الى أن أبويه كانا من الاباطرة العظام, و أنه كان يعيش في ظل مملكتهما العظيمة معززا مكرما الى

حدود العبادة و الترف. فهذا الرجل كان سعيدا في حياته البسيطة المحترمة, فلما عرضت عليه هذه الأمور و صدّقها فانه سيقارن تخيلاته عن مجده السابق بحياته الواقعية, و بذلك سيلعن حياته الواقعية و يتعلق بحياته الخيالية, و عندها تقول الهستيريا "أهلا و سهلا"!

و أما قصة الحياة الاخرة. فان الخوف و القلق الذي توله هذ القصة أكبر بكثير من قصة الهبوط. فالهبوط متعلق بالماضي الذي لا يمكن تغييره و لا مفر من التسليم به (لمن يعتقد بهذه الفكرة بالطبع) و أما المستقبل فهو الأمل, والاخرة تتعلق بالمستقبل اللانهائي و اللامحدود و خاتمة مسرحية الحياة الأبدية, فاما الجنة خالدا أو جهنم خالدا. و عندما يكون أمامك مخاطرة 50% أنك ستكون من أهل النار خالدا مخلدا فيها حيث ستعاني من عذابا يجعل الحياة داخل بركان يبدو على أنه اجازة صيفية جميلة على جزيرة جميلة مع عذارى من الحور العين, فعندها نستطيع أن نفهم كيف تولد هذه القصة القلق العظيم, و الهستيريا الأعظم, و الخوف و السلبية و الاتكالية الأعظم من ذلك. نعم قد يسلي الانسان نفسه بان الله غفور رحيم, و لكن مع ذلك المخاطرة ما زالت موجودة و بقوة, و خاصة عندما يسمع المتدين أن كبار المتدينين و مؤسسي الدين و المذاهب كانوا يرون أنفسهم خطاة و أنهم معرضين لجهنم, و عندما يقرأ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ( و هذا مضحك فعلا, لأن الكبر هو جوهر نفس الانسان! فان كان الله هو الخالق فيوجد عنده هو أو الكاذبين باسمه انفصام في الشخصية أو جهل أو تجاهل) فان القلق يزداد و يزداد, و عندما يقرأ بأن الرياء يؤدي الى جهنم ( و هذا غريب حيث ان القرءان نفسه يقول "قل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون" ) و غير ذلك من معاصي كثيرة جدا جدا أصغرها مترتب عليه عذاب يجعل أقوى الناس, ان اعتقد به فعلا, يخر على وجهه باكيا ليل نهار يطلب العفو, فان كل هذا يؤدي الى نماء الغم و بالتالي العبوس و كره الفرح في الحياة. و يبلغ الخوف و الغم الذروة عندما يقول له الدين أن "أكثر" الناس سيذهبون الى جهنم و الله لن يبالي! يا لطيف الطف...

و دعني اضرب لك مثلا من حياتك. تصور أنك في بيتك مع تسعة من اخوانك المحبوبين. و في أحد الايام نشرت الحكومة بيانا رسميا تقول فيه "ان سبعة من الأشخاص الذين يسكنون في هذا البيت (بيتك) سيوضعون في السجن لمدة عشرين سنة مع الاعمال الشاقة, و سيتم اغتصابهم يوميا من حمير و بغال, و سيتم تعذيبهم يوميا بأشد الآت التعذيب في الوجود, و سيعرضون على الهواء مباشرة حتى يضحك عليهم الاحرار, ثم سيلقون في وعاء فيه زيت مغلي" و تصور أن الحكومة لم تعين أسماء السبعة. فالان كل واحد منكم يواجه احتمالية أن يكون هو من هذه "الأكثرية" التي ستلقى هذا المصير الرائع. و مهما كان ظنك بنفسك خيرا, و أنك لم ترتكب جرما يجعلك تستحق مثل هذا العقاب, فان الاحتمالية لا تزال موجودة, و أي حكومة فيها من الوحشية ما يسمح لها بأن تبدع مثل هذا التعذيب أصلا فان توقع الظلم أو العشوائية أو الغضب المرمي كشرر كالقصر, فان هذا التوقع مبني على

ظن راجح-و العياذ بالله! و مجرد وجود هذه الاحتمالية, ولو افترضنا أنها بنسبة ضئيلة, فهل تتصور أنك أنت أو أحد أصحابك ستعيشون هذه الايام التي تنتظرون فيها هذا العذاب الذي سيحل عليك أنت أو على أحد من اخوانك (و كلاهما سبب للكابة) هل تتصور أنك ستفرح أو تبدع أو تضحك أو تفكر بحرية أو أو ...الخ؟ هذا هو مثل المؤمنين بالاخرة, فعلا!! و أؤكد على كلمة "فعلا" ألف مرة! فكلامي ليس مع المنافقين الذين يزعمون انهم يؤمنون, و ما أكثرهم, بل ان الحياة في المجتمعات المتدينة خاصة يجعلك تعتقد بأنه يكاد لا يوجد غير المنافقين أصلا! وعلى أية حال, فان وجود هذا الاعتقاد بالاخرة و لو كان مرميا في غياهب اللاوعي بسبب أنه انزرع فيك منذ الصغر, هو بحد ذاته سبب من أعظم أسباب الكابة و الغم القبيح الذي يؤتي أكله كل حين باذن تغافل صاحبه. فتنبه.

و أما عن الشعور بالذل بسبب الخضوع للاله. فان جوهر النفس هو الكبرياء. و أي خضوع لأي كائن هو جرح لهذا الجوهر. فالانسان لا يستطيع أن يعبد غيره. لا يستطيع, استحالة طبيعية مثلها مثل أي استحالة في العالم الطبيعي أو الرياضي. العابد يكره المعبود, حتى لو كان يحبه! في اللاشعور الذي هو منبع حياة النفس لا يوجد الا الجوهر متحكما. فلا محل للنفاق أو الخوف في اللاشعور. و العابد ظاهرا انما يقتل جزء من جوهره و يضحي به من أجل تعزيز كبرياء المعبود, و هذا فقط في الظاهر الا أن السبب الحقيقي الذي يجعل العابد يعبد هو لأنه يرغب في اذلال معبوده, عن طريق توهم العابد بأنه هو من أسباب عظمة هذا المعبود, فكأنه هو الذي خلق أو ساهم في خلق هذا العظيم, و الخالق أعظم من المخلوق, فالنتيجة أن العابد أعظم من المعبود! اذ المعبود مفتقر الى عبادة العابد. و من هنا قالوا "ان الله فقير و نحن أغنياء".

ووجود الاله بحد ذاته هو سبب لجرح النفس. لأنه يحد من حركة العقل و العمل الحر. فالعقل يجب أن لا يصل الا الى ما يأمر به الاله و لو كان عقلك يرى غير ذلك. و العمل يجب أن يكون موافقا لشرع الاله و لو كنت تكرهه. فوجود الاله يعني احتقار الانسان. الله كل شيء, و الانسان لا شيء. مجرد طينة شكلها الاله و خلقها لتعبده و تتذلل له بالافتقار الدائم,و لو كان مفتعلا. فاذا لم تستطع أن تبكي فتباكى!

و لهذا فان المؤمن في باطنه يكره ربه و دينه, ولو زعم غير ذلك, مثلما نعلم أن المعدة تكره و ترفض هضم الحجارة و لو بلعها الفم و أدخلها الى المعدة. عقل الانسان يجعله يقبل بأمور لأسباب غير طبيعية,و لكن الجسم الطبيعي لن يطيعه. مثل الذي يبلع حجرة لأن فلانا تحداه و عرض عليه 100 الف ريال ان هو بلعها, فقام الأبله و بلعها فعلا, فان المعدة لن تطيعه و سترفض هضمها, و أغلب الظن انه سيستعمل هذه ال100 ألف ليعالج نفسه من الغباء الذي ارتكبه في حق جسمه! و كذلك العقائد و المؤسسات التي تهمش و تحتقر و تنتقص من كبرياء الانسان,

فان الانسان سيرفضها و ستظهر نزعته الى تدميرها على أعماله. و انظر في المجتمعات جيدا لترى مصداق هذا القول.

هذه الأسباب هي أكبر أسباب وجود الغم في الناس عامة, و عباد الاله خاصة. و الى أن يزول السبب سيظل الأثر, فليرتقوا في الاسباب. و ليقلعوا الشجرة الخبيثة من جذورها العفنة. ثم ليتحرروا و يضحكوا. فان مقدار حياتك هو بمقدار ما تتعجب و تضحك فيها.

(هل يحق لله أن يطلب منك الايمان به؟)

يقول القرءان " و اذ قال ابرهم رب ارني كيف تحي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا و اعلم ان الله عزيز حكيم "

فلنفرض أن معضلة "الله" التي لا حل لها في السياق العام المنتشر على مستوى جماهير العالم قد حلت. و لنفرض أن معضلة كون الله قد اختار شخصا أو اشخاص معينين فقط ليبلغوا رسالته و هدايته للناس, قد انحلت هي الأخرى. و اني أعلم أن اهل التنوير من القراء سيرفضون التنزل و التسليم بهاتين المسألتين اذ لا يوجد أي سبب حقيقي يدفعنا الى هذا التسليم و التنزل. و لكن مع ذلك, فليغفر لي الاخوان هذا التنزل الذي أبرره بسببين: أولا, ان أكثر الناس على الأغلب لن تقبل أو لن تفهم الحجج التي ذكرناها في مسألة "الله" و "الرسل المصطفين" كما بيناها في مقالنا عن ابليس و سيف أبو طالب. و ثانيا, اذا أردنا أن ندمر فكرة تدميرا تاما فعلينا أن لا ندمر قواعدها فقط, بل علينا أن ندمر فروعها أيضا حتى لا يبقى منها أي أثر و لا يبقى لأحد تعلق بها على الاطلاق. و لذلك أريد في هذا المقال أن أثبت أنه حتى اذا افترضنا و سلمنا بالمعضلتين السابقتين فانه مع ذلك لا يوجد أي سبب حقيقي يلزم الانسان بالايمان بل و لا حتى أخذ الدين أصلا بعين الاعتبار. و سنتخذ محور حديثنا هنا هذه الاية القرءانية الرائعة, بالرغم من امكانية ذكر الكثير من الايات, و لكني أفضل هذه الاية لأنها تحوي كل ما يمكن ان يقال في دعم نظريتنا, و هي اية واضحة و فصيحة و مباشرة و لا يحتاج حتى العامي من العرب, بل و غير العرب, لكي يفهمها الا لغته البسيطة, و لغير العربي يمكن ان نترجم له الاية بطريقة سهلة تحوي ما نرغب في التشديد عليه من معانيها الظاهرة. و الان تعالوا لننظر..

ان لكل نتيجة سبب أو أسباب. و كلما أردنا ظهور هذه النتيجة فيجب أن تتوفر هذه الاسباب نفسها. و هذا معروف على كل مستويات الحياة و في كل فروع المعرفة و التعامل اليومي. فمثلا و بصورة عامة, حتى تنبت الشجرة فانها تحتاج الى تربة و بذور و ضوء و ماء و عناية مستمرة من هذه الاسباب, و اذا تخلف أحد هذه الاسباب فلا يمكن ان تنبت هذه الشجرة. فلا يحق , بل من العبث و السخافة, أن يؤمر أحد بأن ينبت لنا هذه

الشجرة بدون توفر هذه الاسباب الاربعة, كأن نوفر له التربة الصالحة و الضوء و الماء و لكن نحرمه من البذور ثم نلزمه بأن ينبت لنا هذه الشجرة و نلومه و نهدده و نقتله اذا لم ينفذ لنا هذا الأمر!

حسنا, فما هي أسباب الايمان بالله و قدرته المطلقة و اليوم الاخر؟ تعالوا لنرى هذه الاسباب كما تبينها الاية المباركة التي افتتحنا بها مقالنا: نلاحظ أن ابرهيم يكلم الله مباشرة و يتحاور معه, و نلاحظ أن ابرهيم طلب رؤية عمل خارق للطبيعة أمام عينيه مباشرة و بتجربة مباشرة منه, و نلاحظ أن الله قبل طلب ابرهيم هذا و اعطاه ما طلب, و نلاحظ أن الاية تربط بين هذه التجربة و نجاحها و بين تحقق العلم المطمئن للقلب بان الله قادر فعلا على احياء الموتى و أنه عزيز حكيم. أحسب أن ما ذكرناه يكفي لتبيين الحجة, و لكن مع ذلك فلنعلق تعليقا تفصيليا حتى يستطيع أغلب الناس أو كلهم أن يفهموا ما نريد قوله بلا وجود أي لبس أو غموض. فالى التعليق.

ان وجود هذه الاية في القرءان هو من أكبر الادلة على ان القرءان لم يحرف ظاهريا و لم ينقص منه شيئا! ان أول اية يجب أن يحذفها رجال المؤسسة الدينية من القرءان على مر العصور ان ارادوا أن يبقوا الناس في حظيرة مذاهبهم هي هذه الاية. و كونها لا تزال موجودة دليل موضوعي عظيم على ان القرءان سليم ووصل الينا (ان جاز التعبير) كاملا لم ينقص منه شيء. نعم لقد حرف الناس معانيه, كما تنبأ القرءان نفسه و كما وقع فعلا, و نعم ان المؤسسة الدينية لم تبقي القرءان سليما لأنها تحبه و لكن لأسباب كثيرة منها انهم لا يحتاجوا أن يغيروا القرءان اذ انهم استطاعوا أن يصرفوا الناس عن القرءان كله عن طريق افكارهم المتعددة حوله و ابتكارهم لفكرة الاحاديث النبوية و ما الى ذلك مما فصلناه في مقالات و كتب اخرى. و على أية حال, نسجل هذه الملحوظة القيمة التي تثبت موضوعيا من القرءان نفسه على أن رجال الدين لم ينقصوا شيئا من القرءان, بالرغم من وجود الدوافع المذهبية و الطائفية و التي يحاربها القرءان جملة و تفصيلا عن طريق اياته المتعددة, فكان هذا داعيا لهم الى أن يسعوا الى محو هذه الايات التي تعارضهم, و هذا ما لم يقع. و الشكر لتفرق المسلمين الذي هو من أكبر أسباب حماية القرءان من مثل هذا الانقاص, حيث ان أي فعل من هذا القبيل كان سيجعل هذا العبث من قبل احدى الفرق سلاحا في يد الفرق الاخرى لتكسب انصارا الى مذاهبها.

ان الاية تبين ان ابرهيم كان يكلم الله. و مع ذلك لم يكتف بالايمان بقدرته الكاملة, و مع ذلك لم يطمئن قلبه الى صدق ما وعده الله به أي احياء الموتى. ان ابرهيم كان "يكلم" الله!!! و لم يكفيه ذلك!!! هل احتاج الى ان اعلق اكثر؟ اني فعلا اجد صعوبة في شرح المشروح, و تفصيل المفصل. يقال أن الذي يكلم الله فهو رجل طبيعي, و يسمى هذا العمل صلاة أو دعاء, و لكن أن تؤمن ان الله يكلمك فان هذا يجعلك رجل مجنون أو نبي حسب التعبير

الديني. و يحسب الناس أن الله اذا كلمهم فانهم سيؤمنون بكل شيء, و سيكون هذا أكبر دليل على صدق الدين و وجود الله و الاخرة و ان هذا سيجعلهم يعملون بالدين حرفيا الى اخر القائمة. و ها هو ابرهيم يتحاور مع الله مثل ما يتحاور الخليل مع خليله, أي الصديق مع صديقه المقرب جدا. و مع ذلك فان هذا لا يكفي لاطمئنان القلب. حسنا يا ابرهيم, ما هي طلباتك حتى تؤمن؟

يقول ابرهيم "رب أرني كيف تحي الموتى" و انتبه أن الخطاب هنا لابرهيم كفرد. فابرهيم لم يقل "رب ان قلبي اطمئن بالكلية الى أنك ستحي الموتى و انا شخصيا لا احتاج الى أي برهان اخر بل و لا احتاج الى معرفة التفاصيل التي لن تغير من الحقيقة شيئا و لكني اطلب منك أن تري هؤلاء الناس كيف تحي الموتى" هذا لم يحدث. فهو لم يطلب من الله أن يعرض قدراته الخارقة على الناس أجمعين, و لكن هو يطلب ذلك لنفسه فقط. و لاحظ ضمائر الانا التي تعود على ابرهيم في هذه الاية كم مرة تذكر "ارني" "ليطمئن قلبي". فابرهيم هنا يطلب عمل خارق للعادة يكون هو نفسه محور هذا العمل. و ليس عملا مذكورا في كتاب, أو قصص قديمة متعلقة بأناس اخرين. و كذلك الله لم يقل له "يابرهيم اتق الله, و اذهب و اكثر من الصلاة و الصوم و اطرد وسواس طلب البراهين التجريبية المادية من عقلك فان هذا الشيطان يريد أن يضلك" و كذلك لم يقل له الله "من انت حتى تطلب مثل هذا الطلب؟! انا لا أسأل عما أفعل, و عليك أن تسلم تسليما بما أخبرتك به, و اكتفي بنعمة تكليمي اياك" و كذلك لم يقل له "فكر بعقلك فلسفيا لتعلم صدق البعث, أو انظر الى اعمال الطبيعة و كيف يحي المطر الأرض بعد موتها و كذلك الخروج" لا لا هذا كله لم يحدث. فياليت أدعياء الدين أن يكفوا عن بث هذه الاقوال في عقول الناس, و ياليت الناس تقرأ القرءان بنقد و عمق و عقل حر. فما فعله الله هو أنه لبى طلب ابرهيم!

فاسباب الايمان بالله و الاخرة كما يظهرها ابرهيم, و هو أبو المسلمين و الملة, هي هذه: أولا, أن يكلم الله الانسان الفرد بنفسه بطريقة لا لبس فيها. ثانيا, أن يقوم الله بعمل خارق لسنن الطبيعة يكون محوره هذا الفرد نفسه. و ثالثا, أن تنجح هذه التجربة فعلا. و لا يوجد أي عناد او تنطع أو سفسطة في هذا الكلام, فهذا هو عين ما قام به ابرهيم, و اننا لم نأت بهذا الكلام من كتب المجوس أو الروايات و ألف ليلة و ليلة, و لكنه من صلب القرءان المبين. و هي ايات بينة لا تحتاج الى أكثر من تذكير و تشديد على محتواها.

و الان دعني اسألك أنت أيها السامع: هل كلمك الله؟ لا. هل قام بعمل خارق للطبيعة لك أنت شخصيا و بيديك شخصيا و تراه بعينيك شخصيا و يكون عمل خارق فعلا غريب فعلا لا يمكن بحال من الاحوال ان يكون مما يمكن أن تنتجه الصدف أو الاتفاق أو الهلوسة, كما فعل الله مع ابرهيم؟ لا. فاذن أنت لست فقط غير ملزم بالايمان و لا

حجة عليك, بل من الحماقة أن تؤمن أصلا, و اذا زعمت أنك ستؤمن بملة ابرهيم عن طريق أسباب أقل بكثير من الاسباب التي امن بسببها ابرهيم نفسه(!) فعندها لا أملك الا أن اقول لك: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين, و لا المريضين. و في الواقع ان الجهل و المرض وجهان لعملة واحدة.

فاذن الخلاصة: نحن لسنا اعظم من ابرهيم, فما كان يحتاجه ليؤمن نريده ايضا لنؤمن.. فيالله استجب و ارحم!

(هل الأنبياء أصنام؟)

يقول القرءان " قل يا أهل الكتب  تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم: ألا نعبد الا الله, و لا نشرك به شيئا, و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله, فان تولوا فقل اشهدوا بأنا مسلمون ". و نحن نريد أن نحاكم الانبياء و أتباعهم (على الاقل الذين يقولون أنهم أتباعهم خاصة من أنصار ما يسمى ب "الشريعة الاسلامية" أيا كانت فرقتهم و طائفتهم التي ينتموا اليها ) نريد أن نحاكم هؤلاء كلهم بحسب هذا المعيار القرءاني الذي يفترض أنه الهي يؤمنون به و يسلّمون له. و نخص بالذكر الفقرة الثالثة من بنود التوحيد الكامل المذكور في الاية القرءانية و هي "لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله". فتعالوا ننظر.

لقد فصّل القرءان الكريم هذه الفقرة الثالثة تفصيلا مسهبا في ايات عديدة. نقتصر منها على ما يفي بالمقصود و هي هذه " اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله و المسيح بن مريم". و يقول "اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا". و يقول "و كان لبشر أن يؤتيه الله الكتب و الحكم و النبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله". و يقول "و كلهم اتيه يوم القيمة فردا". و يقول للنبي "لا تكلّف الا نفسك و حرض المؤمنين". و يقول "أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله". و لنكتفي بهذه الكلمات.

الان, لا يختلف أحد من العلماء أيا كان مذهبهم بأن من أطاع بشرا في أمر ينسب الى الله فقد أشرك بالله. الا بشرط واحد: أن يكون هذا البشر رسول او نبي من الله. هذا القدر متفق عليه بينهم. فالأصل أنه لا يحق لاحد أن يتقول على الله تعالى بغير علم و لا اذن منه تبارك و تعالى. و معلوم أيضا أن عبادة الاحبار و الرهبان على أنهم "أرباب" انما هو لانهم أطاعوهم في أمرهم, المخالف لأمر الله. فالرب هو الذي يأمر و ينهى. و كل من يأمر و ينهى فهو رب. و لذلك يقال "لا حكم الا لله" لانه لا رب للمسلم الا الله تعالى. و هذا أيضا متفق عليه و هو صريح الايات القرءانية.

حسنا, ما أقترحه أنا في هذا المبحث هو التالي: لا يوجد بشر يتكلم عن الله تعالى باسمه خاصة لو كان بصفة احتكارية, الا و يكون هذا الشخص يقدم نفسه على أنه رب من دون الله يريد الناس أن تعبده. و هو صميم الشرك و الكفر بالله. و ينبني على هذا أمور كثيرة أهمها: حتى النبي او الرسول او الولي اذا قدم نفسه على أنه يتحدث عن الله تعالى بصفة احتكارية, فهو يدعو الناس الى عبادته و الاشراك به من دون الله. و على ذلك لا يوجد أحد

يملك الحق بأن يكون متحدثا باسم الله, بل الله تعالى رب الجميع وحده و هو يتجلى لكل فرد بما يشاء و بحسب الاستعداد.

ما المحذور في هذا؟ سيقول لنا الأرباب: و لكن الله تعالى يعطي رسالته لبعض البشر ليكونوا متحدثين باسمه, و نبينا محمد هو خاتم الانبياء و المرسلين. فالنبي يأمر و ينهى, و لكن باذن الله. و هذا لا ينطبق عليه وصف الشرك و ادعاء الربوبية الذي ذكرته.

نقول لهؤلاء الافاضل: أنتم أقررتم أن النبي- كما تتصورونه طبعا- كان يأمر و ينهى. و هذا اقرار بانه يتصرف كرب على الناس. هذا القدر أنتم أقررتم به و لا مجال للتراجع عنه و نحن نلزمكم به. و لكنكم أضفتم قيدا على هذه الجملة فقلتم بانه كان يامر و ينهى "باذن الله". و بهذا القيد حررتم أنفسكم و دينكم من تهمة و جريمة الشرك و الكفر. و هنا محل النزاع معكم. فنحن ننكر هذا القيد, ننكر تحققه و ننكر أن الله تعالى يقوم بمثل هذا. و أدلتنا على هذا كثيرة منها قرءانية و منها غير ذلك, و لكن سأكتفي بأن أورد الأدلة القرءانية لانه يفترض أنكم تؤمنون بالقرءان و تسلّمون به فهو حجة ملزمة لكم ان كنتم من أهل هذا الدين.

أولا, قول القرءان "أربابا من دون الله", السؤال الان: هل يمكن ان يوجد أربابا بأذن الله؟ لان هذا هو معنى ان النبي كان يأمر و ينهى باسم الله باذن الله. لو كان يأمر و ينهى باسمه الشخصي أو بما له من سلطة معرفية (كأمر و نهي الطبيب مثلا) أو بما له من سلطة قانونية شرعية (كأمر الهيئة التشريعية التي وافق على وجودها الناس في المجتمع و لم تطغى عليهم و تتغلب عليهم بالقهر و العنف) و نحو ذلك من أسباب الامر و النهي فان الأمر لا اشكال فيه عموما. فهو أمر طبيعي يقوم به كل الناس في حياتهم بنحو من الأنحاء. و لكن المشكلة تبدأ عندما يأمر و ينهى – اي انسان- باسم الله و يدعي انه ما أمر و نهى الا باذن الله الذي خاطبه هو شخصيا من دون كل أحد من الناس ليبلغ شريعته للناس. "أربابا من دون الله" هل قيد "من دون الله" هو قيد تفسيري أم قيد شرطي؟ قيد شرطي يعني أنه يمكن أن يكون هناك رب "بالله" يعني باذن الله. قيد تفسيري يعني انه توضيح اضافي على حقيقة أن كل من يطيع انسانا فرضا فانما يتخذه ربا, و بالتالي يكون دائما "من دون الله" بهذا الاعتبار. القرءان ينفي احتمالية ان يكون هذا القيد شرطي, لانه لعن من يزعمون ان الله أمرهم أن يشركوا به! فالذي يزعم أن الله تعالى هو الذي أمره بأن يعلن نفسه ربا للناس تحت أي ذريعة كانت, فانما هو صنم من الاصنام. و المصيبة الاكبر هي عندما يدعي هذا الشخص أن الله أذن له بهذا! و ان الله لا يأمر بالفحشاء و لا بالسوء و لا بالشرك كما لا يخفى على أهل القرءان. بل الشيطان هو الذي يأمر بمثل هذه الأشياء.

ثانيا, فلنفرض أن النبي محمد فعلا ادعى ذلك, و لنفرض أن القرءان أيضا يوجد فيه هذه السلطة الالهية الممنوحة للنبي ليتصرف كرب "باذن الله". أقول: هذا لا يلزم أحد من الذين احترموا أنفسهم و عقلوهم و أرواحهم بشئ. و ذلك لان النبي أقر على نفسه في كتابه المقدس بان من أطاع بشرا من دون الله فهو مشرك. فهذا الاقرار عليه. ثم ادعى أنه هو مجرد مبلغ لهذه الاوامر بالنيابة عن الله تعالى, و هذه دعواه هو و لا برهان و بينة تامة عليها. فالاقرار عليه و الدعوى المجردة لا تلزم أحد بشئ. هذا فضلا عن المطاعن الكثيرة التي يمكن أن توجه لمثل هذه الدعوى و التي بحثنا فيها في هذا الكتاب و غيره من كتبنا. و لنذكر مثلا واحدا كاشارة سريعة لمجرد التذكير: يقال ان اعجاز القرءان و كونه لم يستطع أحد من البشر أن ياتي بمثله يدل على ان هذا القرءان من عند الله. و قلنا في الرد على هذا الكثير من أهم الردود و أقواها هو هذا: اثبات كون البشر لم يستطيعوا أن ياتوا بمثل هذا القرءان- حتى لو سلمنا بذلك- شئ, و اثبات ان هذا القرءان من عند كائن مطلق خلق العوالم كلها و هو كائن منفصل بنحو من الانحاء على هذه العوالم (كما يفترضه أهل هذه الاديان بالضرورة), شئ اخر تماما. فاذا أثبت لك أن الجريمة لم يرتكبها زيد, فان هذا شئ, و أن اثبت لك أن الجريمة قد ارتكبها عمرو هو شئ اخر تماما. فلا اتصال بينهما. اللهم ان نفي كون زيد هو مرتكب الجريمة يعني تقليص الاحتمالات المعروضة أمامنا في بحثنا عن مرتكب هذه الجريمة. و كذلك اثبات ان البشر لم يخترعوا هذا القرءان شئ, و اثبات ان الله تعالى هو الذي اخترعه او افاضه او كتبه او انزله شئ اخر تماما. و برهان اعجاز القرءان هو أعظم برهان يمكن أن يقدمه انصار محمد (كما يدعون) لتاييد دعواهم في انه كان ربا على الناس باذن رب الناس. و البعض يقول ان هذا هو البرهان الوحيد. ايا كان, فان كان البرهان الاعظم بهذا الضعف و الوهن فما ظنك بما دونه كادعائهم بانه كان يكلّم الشحرة و يدعوها الى الاسلام فتخرج من جذعها و تأتي تمشي اليه و تسلم بين يديه ليثبت نبوته لرجل جاهلي ! و القليل المكثف يدل على الكثير الغث. فاستبصر لنفسك و انظر لحياتك.

ما معنى نسبة الأمر الى الله تعالى؟ يعني تحصينه ضد كل نقد و نقض, و وجوب العمل به بالنسبة للمحترم لمقام من هو اعلى منه. و الان, هل لله أوامر مخصوصة قانونية مثلا- كمثل القانون الجنائي و قانون الاحوال الشخصية و نحو ذلك من قوانين تخص شأن السلوك البشري, أم أن اوامر الله تكوينية وجودية فقط و ما أوامر البشر و تشريعاتهم الا ثمار تخرج بحسب نطاق الامكان في عالم الخلق؟ أي هل الله خالق و قانوني, ام الله خالق فقط و القانون من صنع الناس و شانهم؟ نظرية أنصار ما يسمى بالشريعة الاسلامية أن الله خالق و قانوني أيضا. و النظرية التي أسميها نظرية العرفاء هي أن الله تعالى خالق فقط, و كل المخلوقات تسير في ضمن سننه الوجودية قهرا و كرها و لا يمكن لهم أن يخرجوا من سلطان الله أصلا او يعصوه أصلا أو يشركوا في حكمه أصلا. فالله عظيم حقا حقا سواء رضي الخلق بحكم الله أم لم يرضو فان هذا لن يغير من الواقع شيئا. و طبعا, لاثبات صحة نظرية

العرفاء, يوجد طريقين: اثباتها بذاتها أو نقض ما يخالفها. و هذا المبحث مختص بالطريقة الثانية. أي نقض ما يخالفها. فهل كون الله رجل قانون بشري هو أمر مبرر و له ما يسنده؟ و ما مقدار قيمة الله تعالى ان كان فعلا هو مشرع قانوني بالمعنى الشرعي البشري لذلك كما يتمثل في الشريعة الاسلامية (أيا كانت الفرقة) ؟ و سنقتصر في نقضنا على نموذج الشريعة الاسلامية بحسب العوامل المشتركة بين عموم من يؤمنون بوجود مثل هذه الشريعة. ثم لنرى. مع العلم أني ذكرت في كتابي (سبرماركت الشريعة) أنه لا يوجد كيان اسمه الشريعة أصلا, هي وهم, هي مثل التنين, ذلك الكائن الخرافي المخيف, فمن شاء ان يراجعه فليراجعه. و لكني هنا أنقد من زاوية أخرى. مع العلم أن كون الله حاكم بمعنى الخلق و سننه هو أمر يوافقنا عليه أنصار الشريعة ايضا. و لكنهم يفترقون عن نظرية العرفاء باضافة أن الله تعالى له قوانين و شرائع اجتماعية سياسية باالاضافة الى شرائعه التكوينية و الوجودية. فالشرائع التكوينية و الوجودية لا يستطيع أحد أصلا أن ينكر وجودها. فهي الحدود الموجودة فعلا في واقع العوالم. و انكارها أو قبولها لن يغير من الأمر شئ. كمن ينكر أن الجسم يموت ويتحلل, فسواء ءامن الناس بان هذا الجسم سيموت و يتحلل اذا توفرت شروط معينة, أو لو يؤمنوا بذلك بل قالوا انهم سيعيشوا الى الابد, فان هذا لن يغير من الحقيقة شيئا, لن يغير من حقيقة حكم الله في هذا الامر شيئا. حتى لو أنكر نسبة الاحكام التكوينية و الوجودية الى "الله" فان هذا أيضا لن يغير من الامر شيئا. فالله هو الاسم العربي الذي ننسب له مجموع الواقع كله. فقبوله أو رفضه لن يغير من "الواقع" و حدوده شيئا. فالله عند العرفاء أعظم من أن يكفر به, و أكبر من أن يعصى أمره, و أجل من أن يفتقر الى دعاة ليثبتوا أمره في كونه. و هذا ما يوجد نقيضه تماما في اله اهل الشرائع هذه. و هذا أول نقص عظيم في الههم.

و ثاني نقص, هو ان افتراض ان لله شريعة يحتاج الى تبليغها لخلقه يعني أن خلقه ناقص بذاته, و يحتاج الى مكمل خارجي لذلك. و هذا طعن في ذات خلقه و كماله. و القرءان نفسه يقول "تبارك الله أحسن الخالقين" و "الذي أحسن كل شئ خلقه" و "صنع الله الذي أتقن كل شئ". فليكون الخلق في قمة الحسن و الاتقان يجب أن يكون كامل بذاته. فكون الانسان لا يملك القدرة على أن يستنبط ما ينفعه بنفسه يدل على نقصانه في الخلق و التكوين. و يزداد الأمر اشكالا عندما يقول انصار شريعة محمد: ان شريعة محمد نسخت كل الشرائع التي كانت قبله و في زمنه, و كل الشرائع التي كانت في زمنه هي شرائع محرفة ناقصة.و يقولوا ايضا: بدون شريعة محمد لا يستطيع الانسان ان يتكامل و يعيش حياة مستقيمة. هل تعلم ماذا يترتب على هذا؟ مما يترتب عليه هو التالي: مئات الملايين من الناس الذين كانوا في الهند و اوروبا و افريقيا و اسيا الذين كانوا يعيشون في فترة محمد, و قبله ايضا بفترة لا باس بها من الزمن, كانوا كلهم اناس خلقهم الله و تركهم عبثا ! تركهم بغير شريعة تهديهم في حياتهم, و بدون القدرة على معرفة ما ينفعهم و يجعلهم يتكاملوا, و بدون رسول عندهم ليبلغهم شريعة الله. بل و زيادة على هذا, كل الناس الذي سيأتوا بعد محمد الى يوم القيامة أيضا لن تكون عندهم هذه الشريعة الالهية و لا القدرة على معرفتها (لان شرع الله لا يدرك بالعقل و النظر كما يعتقد انصار محمد) و حيث ان محمد اخر نبي و رسول كما

يعتقدون, فهذا يعني أن مئات الملايين, لا , بل المليارات من الناس خلقهم الله –الذي أحسن كل شئ خلقه و أتقن كل شئ صنعه– و تركهم هباءا منثورا و عبثا لا سبيل اليه الى ادراك غايته و معرفة حقيقته و استلهام سبيل الرشد في حياته. و من استطاع من هؤلاء البائسين المحرومين ان يتصل بدين محمد, فيجب عليه أن يعتقه و يقبله – مع كل العوائق و العقبات الطبيعية و النفسية و السياسية و الاجتماعية و الروحية في سبيل ذلك و التي غالبا لا دخل للانسان بوجودها كلها– بل و حتى يزيد أنصار الشريعة من "عظمة" عقائدهم, فان هؤلاء الكفار و الضالين سيضطروا أن يغوصوا في خلافات الفرق الاسلامية التي لها أول و ليس لها اخر حتى يدركوا المذهب "الحق" من بين المذاهب الكلامية و العقائدية, ثم على افتراض انهم وصلوا الى هذا المذهب– و هيهات– فانه عليهم أن يغوصوا و يتبحروا في علم أصول الفقه حتى يعرفوا عن يقين أصول الفقه بالنسبة الى مذهب اهل "الحق" من بين كل الفرق الضالة المنحرفة الاخرى, ثم و ثم و ثم ..ثم يقال بعد كل هذا أن الله تعالى أحسن كل شئ خلقه و رحمته واسعة جدا جدا, بل وسعت كل شئ ! ألا ساء ما يحكمون.

فاذن الانتقاد الاول هو ان الله في هذا المنهج هو اله محدود أقصا ما يقال فيه أنه مثل ملك من ملوك الناس. يوجد له وزراء و اعوان و جنود, و هؤلاء عليهم أن يسعوا بالمال و العنف و القهر و الاقناع أن يضموا أكبر عدد من البلدان و الناس الى مملكته. فمن الناس من يقبل دعوة هذا الملك طوعا, و منهم من يذعن لها خوفا و قهرا. و في كل الاحوال يبقى سلطانه محدودا في الفئة التي خضعت لسلطانه و أطاعت أوامره. و من هنا قلت في كتابي (محامي ابليس) ان الله عند هؤلاء ليس الا فرعون في السماء. تماما مثل فرعون الارض من بعض النواحي, بل و اضعف منه في نواحي اخرى. على الاقل, تعذيب فرعون الارض و نعيمه مشاهد عيانا و لكن أنصار فرعون السماء بينهم و بين اثبات دعاواهم كما بين ابليس و الجنة !

و الانتقاد الثاني هو أن الله في هذا المنهج هو خالق قاصر, أقصا ما يقال انه أحيانا يحسن منتجاته و أحيانا يخرج ما لا ينبغي, بل يحتاج الى تدخل البشر مباشرة او غير مباشرة لتعديل و اصلاح خلقه بالنيابة عنه. فكأنه عجز عن اكمال خلقه أول مرة, فاضطر الى هؤلاء الناس (الذين معظمهم أتفه من أن يؤتمن على اصلاح مخبز الحي! و سادتهم يعرفون ذلك و لذلك يسمونهم "العوام" فتأمل) فاضطر جل و علا أن يستعين بهؤلاء الناس لكي يكملوا له خلقه بشريعة استدركها الله على نفسه. يعني كمثل انسان يصنع سيارة, ثم يستأجر سائق ليسوقها, و لكن بسبب نقص قدرة و سلطة صانع السيارة فانه يضطر الى كتابة كتاب مرشد للسائق يخبره عن الكيفية المثلى لاستعمال السيارة, فيقول له أن الفرامل هنا و البنزين هناك و أن العجلة اذا انفجرت فعليه أن يبحث في المكان الفلاني لايجاد العجلة البديلة ثم يرشده خطوة بخطوة في كل أمور السيارة. (و لا تستغرب من هذا المثل, فان انصار الشريعة يستعملونه أحيانا, و يقولون ان الله هو صانع السيارة, و الانسان هو السيارة, و النصوص الشرعية و في رأيها القرءان هي

كتاب الارشاد هذا ! فتأمل جيدا في أمثالهم التي يضربونها ليقربوا نظرياتهم لعقول الناس, و عندها تستطيع ان تستنبط حقيقة دينهم و رؤيتهم للوجود ) . فالله تعالى يصور كمثل هذا الصانع. الذي خلق أولا, ثم استدرك على نفسه ثانيا, و أصبح يلعن و يغضب على كل من لا يقبل استدراكه هذا على نفسه- حاشاه حاشاه. و يا ليت من افتروا هذه الفرية عليه جاؤوا بشريعة راشدة فعلا لكان الأمر أهون, و لكنهم يأتون بامور في معظمها لا يستطيعوا أن يقنعوا الناس بمنفعتها الا اذا وضعوا عليها اسم "الله". فلينزعوا عنها اسم الله و ليقدموها للناس ثم لنرى كم عدد الذين سيقبلوها و كم عدد الذين سيرفضوها ممن الان هم تحت نيرها و حكمها. هم يحاولوا ان يوهموا انفسهم و الاخرين بان شريعتهم عقلانية نورانية, حسنا, انزعوا عنها اسم الله و تخويف الناس بجهنم الابدية ان لم يعملوا بها ثم أروني من سيقبلها و لماذا. و ان الحق لا يحتاج الى ألقاب تزخرفه من أجل أن يقبله العقلاء من الناس و أصحاب الارواح الحرة. و انما يحتاج الى الزخرفة الضعيف الذي يراد تسويقه في سوق الضعفاء السطحيين الذين ينظرون الى اسم المنتج فيشترونه بغض النظر عن التعمق في محتواه و التحقق منه. و ان كان مثل هذا الاستهتار و التساهل يمكن أن يقبل الى حد ما في شؤون دنيوية أرضية فانه لا يمكن بحال أن يقبل في شؤون علمية عرفانية و الهية.

و الانتقاد الثالث في وجود رب بشري- و ان كان يزعم انه ماذون في ذلك من الله – هو محق فردية الانسان. فردية الانسان الذي خلق فردا, و سيموت فردا, و يقول القرءان انه سياتي الى ربه فردا. و سيحاسب فردا, و سيصل الى مصيره فردا. هذا الانسان الفرد المتفرد, الذي لن يغني عنه شيئا أن ينسب ضلاله الى كونه اتبع فلان و علان, و لن يرفع من شأنه أن يتبع أهل النور على عمى, بل كل فرد لا يتبع النور على بصيره فانما هو جاهلي من الجاهليين. بهيمة من البهائم. "ام تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا". هذه الفردية الجوهرية, و التي هي أعظم ما في الانسان, تمحق محقا اذا وجد أي فرض خارجي على الانسان. مهما كانت الحجة و الذريعة. و محق هذه الفردية هو تخصص قديم و عريق احتكره أهل الشرائع السماوية و الفرعنة الارضية. و معلوم أنه في الاغلب لم يقوم فرعون في الارض الا بجانبه هامان الدين يسنده و يقيم صلبه. فلم يرتفع طاغية الا على أكتاف عقيدة دينية تنسب الى السماء و الله و العناية الازلية و ما أشبه. المسلم- بحسب فقرات التوحيد الثلاثة التي افتتحنا بها مبحثنا هذا و بحسب تعليقنا السابق- هو الفرد. و كل أهل الشرك هم أصحاب "جماعة". و "اجماع الامة" و ما شابه هذه البناءات البهائمية, لسان القطيع و منطقهم. و هنا أصل المشلكة: فان انزال الله لشريعة معينة "يجب" على كل احد أن يطيعها مهما كان رافضا لها في نفسه و مهما كان لا يجد استعدادا ذاتيا لقبولها, فانه يعني الكثير من المصائب الانسانية و النواقص الالهية, من أهمها: محق الفردية الفطرية الطبيعية. بل و يعني أن الله تعالى ليس عالما تاما بخلقه بحيث أنزل لهم ما يمكن ان يرفضوه! و ان ابسط حكيم , بل القرءان نفسه يقول "فذكّر ان نفعت الذكرى". فهذا يعني ان لم يتنفع فلا تذكّر. بل القرءان يجزم أن دعوته انما هي لقلة من الناس "و ما أكثر الناس و لو حرصت بمؤمنين". و هذا طبيعي و مفهوم, لان كل فكرة-بحسب سنت الله في الخلق-

يقبلها البعض الذي لهم نفس استعدادات صاحب الفكرة و لهم نفس ميوله, و لكن يرفضها البعض الاخر. و الله خالق الكل, و ليس خالق هؤلاء القابلين فقط ! و هذا من أكبر تناقض هذه الاديان, فانهم يقولون : الله خالق كل شئ, و يقولون أيضا: لن يعتدي بهدى الله الا قلة ! يقولون: شريعة الله كلها رحمة, و يقولون أيضا: معيار الرحمة تحدده الشريعة ! فما تقول عنه الشريعة انه رحمة فهو رحمة, و ما تقول عنه انه نقمة فهو نقمة, و ليس لعقول البشر دخل في هذا, أقول لهؤلاء المرضى: فما فائدة تفاخركم و تبجحكم بان الشريعة كلها رحمة ان كان معيار الرحمة هو ما تحدده الشريعة نفسها !! هذا كمثل قائد طاغية أرعن يقول للناس: أحكامي كلها عادلة. فاذا سألناه: و ما معيار معرفة أن الحكم عادل ام ظالم؟ فيرد عليك: ما أقول عنه أنا أنه عادل فهو عادل, و ما أقول عنه أنه ظالم فهو ظالم ! ويل هذه الاديان ماذا تفعل في منطق الانسان. فكم من غبي لم يجعله الدين عبقري, و لكن كم من عبقري جعله الدين غبي. و من تناقضاتهم الاخرى- و ما أكثرها- قولهم: الله و رسوله شرعا كل شئ يحتاجه البشر, ثم يقولون: باب الاجتهاد في الشريعة مفتوح و الاختلاف بين الفقهاء جائز. ان كان الله شرع كل شئ فما بالكم تخرجون كل يوم بتشريع جديد, و برأي جديد, و ما بالكم تنقضون اليوم ما أبرمتوه بالأمس و تبرمون اليوم ما نقضتموه بالأمس. و ان كان الله شرع كل شئ فما الحاجة الى الاجتهاد و القياس أصلا؟ سيقولون: اصول الشريعة مرنة. أقول: أنتم جعلتموها مرنة حتى تخرجوا من مأزق نقصها. و ان كان الله شرع كل شئ فهذا يعني أنه قد فرغ من التشريع لكم, و هذا خلاف التاريخ و المشاهد اليوم. الى اخر هذا الهذر الذي لا ينتهي. و خلاصة ما تقوم به هذه الشريعة و غيرها هي أنها تمحق فردية الانسان. و بالتالي تخلق النفاق. لانه لا أحد يستطيع أن يلغي فرديته الذاتية. فالفردية من حكم الله الخالق. و لذلك لا يستطيع الا أن "يكبت" فرديته. فيشطر نفسه و يشقها نصفين أو أكثر, و لا يزال يقمع و يضطهد فرديته بل و يأذن لغيره بأن يساهموا في قمعها و قهرها و ضربها حتى تنزوي في اغوار نفسه. ثم يعمل اسم الله "المنتقم" فيرد على هذا القمع بان يخلق عنف و غضب في نفس هذا المقهور. ثم يبدأ هذا التعيس باخراج غضبه و عنفه على الاخرين. و تضطرب نفسه, و يختل نظام وجوده. اذا ذهب الكبت الى نفس قال العذاب: خذني معك ! و اذا رفضت فردية الانسان و قمعت قالت جهنم: الان وجدت نفسا أسكن فيها ! و جهنم ترمي بشرر كما هو معلوم, و هذا الشرر يتطاير على من حول هذه الكائنات المقموعة البائسة. و أول من تحرقه النار هو مصدر النار ذاته. و قمع الفردية يكون باعتقاد الانسان فعلا بان الله أمره بشئ. فاذا استطاع السحرة أن يقنعوا الناس بذلك فعلا أيا كانت وسيلتهم في ذلك, فان الانسان سيخضع لهذا الأمر مهما كلفه الأمر. لان فطرته بل فطرة كل مخلوق تحتم عليه بذاتها أن يرضى و يسلّم بالواقع و سننه, اذ ليس عنده مخرج من حدودها أصلا و حتى الذي "يرفض" انما يرفض بالقدر الذي أذن له الخالق تعالى فيه, فمثلا من يرفض الحياة قد ينتحر, و الله الخالق هو الذي اذن أن يكون شنق الانسان نفسه مثلا سبيلا الى الموت, و لو شاء لما جعل سبيلا للخروج من الموت الا بطريقة واحدة يعينها هو, و لكن المتحقق في الواقع هو وجود أكثر من طريقة للخروج من الحياة, و رافض الحياة لن يملك الا أن يستعمل احدى هذه الطرق التي حددها الله تعالى, فهو خاضع لأمر الله و سلطانه شاء أم أبى. و هذا ما أعنيه بان "فطرة الانسان تحتم عليه طاعة الخالق". و من هنا يدخل السحرة, فانهم يوهمون الانسان بأن نفس هذا الخالق

تعالى قد أمر بكذا و نهى عن كذا, فينجرف التائه ورا ءهم و يخضع لسلطانهم هم من حيث لا يشعر. فقد ضل سعيه و هو يحسب أنه يحسن صنعا. على أية حال, قد اختار هو أن يسلك هذا السبيل فهو و ما اختار, و كل امرئ بما كسب رهين. و لكن تدخلنا نحن و أمثالنا انما هو لتنبيه الناس الذين تم الطغيان عليهم من قبل السحرة, اي ان نبين للناس قدر استطاعتنا بحقيقة ما يقوله هؤلاء السحرة, و نبين لهم خيارا اخرا متاح امامهم أو خيارات, ثم بعد ذلك ليختاروا ما يختاروه بنا ءا على ارادة حرة و اطلاع كاف و قرار يقظ. و اما أن يأتي السحرة فيطغوا على الاطفال فيلقنوهم عقائدهم منذ الصغر و يفرضوها عليهم فرضا حتى يضمنوا أن ترسخ فيهم عقائدهم و مصالحهم , عملا بالفكرة القائلة "التعليم في الصغر كالنقش على الحجر", فان هذا مرفوض فضلا عن أنه يبين المستوى الاخلاقي و التنويري الهابط الذي تشتمل عليه قلوب هؤلا ء القوم و أمثالهم. بل لو فرض أحد على طفل او جاهل عامي نظرية العرفا ء فانه يعتبر من السحرة الطغاة أيضا و يجب أن يجاهد اصحاب نظرية الشريعة و غيرهم لتبيين الخيارات الاخرى في الوجود. و قس الامور على ذلك. فالاصل ان تتوفر الارادة الحرة و الاطلاع الكافي على الاختيارات المعروضة, ثم يكون الانسان فردا حقا. فلكي نعيد فردتينا الى ذواتنا, و الى بقية الناس يجب أن نجاهد في سبيل امرين: الارادة و المعرفة. اي محق أسباب القمع و الظلم و القهر, و نشر أسباب اكتساب المعرفة الواسعة. و هذا عمل انسان راقي فعلا. فنسأل الله أن نكون من هؤلا ء.

فخلاصة ما فات هي التالي: كل من ينزع منك فرديتك بأي اسم كان فهو مستكبر ملعون يريد أن يكون ربك كفرعون. مهما كانت حجته. و نظرية العرفا ء هي ان شرع الله و حكمه مبثوث في خلقه كله, و الكل خاضع له شا ء ام ابى, بل مشيئت ذاته خاضعة له من حيث يشعر او لا يشعر, فالله هو العظيم المطلق و السلطان المطلق. و نظرية انصار الشريعة السماوية منتقدة على الاقل من ثلاث زوايا: ان الله فيها صاحب سلطان ناقص جدا, و ان الله فيها خالق قاصر مقصر جدا, و انها تمحق فردية الانسان التي هي جوهر ذاته. و الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين. الحمد لله رب العالمين.